منهج الدعوة الاستدلالي

في

القرآن الكريم

دراسة تأصيلية

للدكتور

أحمد إسماعيل أحمد أبو شنب

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد بالكلية

رات
.com

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة
أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من
المشركين ﴾ .

{ يوسف : ١٠٨ }

رات
com

رات
.com

المقدمة

رات
:com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبتوفيقه يصل الإنسان إلـــى أعظـــم الغايـــات ، وبهدايته تنبني الرؤى وتكمل التصورات ، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين وعلى أصحابه والسالكين طريقه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين .

وبعـــد :

بادئ ذي بدء أقول : إن موضوع هذا البحث : { منهج الدعوة الإسلامية الاستدلالي في القرآن الكريم } يأتي في لحظات حاسمة في تـــاريخ الفكر الإسلامي بعد كثرة هائلة من البحوث والدراسات العلمية التـــي ركـــزت علـــى القضايا والمضامين الدعوية الموضوعية ، في لحظـــات علا فيها صوت الخلافات ، وتأسست فيها الرؤى المذهبية ، والاتجاهـــات الفكـــرية التي تتبناها مدارس دعوية متعددة ومتنوعة ، عَمَّقت من رؤى الخلافات المنهجية ، والتوجهات الفكرية التي انطلقت من توجُّسات الواقع الفكري، وآمال النهضة الكبرى، يحدوها الترقب ، ويغيب عنها الحذر !!

وقـــد غابت في خضم هذا المعترك الرؤى المنهجية فيما يتعلق بقضايا المنهج العلميِّ في التأصيل لمنهج دعوي راشدٍ ، يمكن استنباط أصوله وقواعده ومبادئه من القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، تتحاكم إليه هذه المدارس الدعوية على تنوعها ، واختلافها في الرؤى والنهج

لضـــبط تصـــوراتها الإدراكية ، لتتفاعل وتنسجم مع معطيات المنهج الدعوي وأهدافه .

وقـــد أدى غياب هذه المنهجية إلى تفعيل المعترك إلى أن صار مفـــترقاً فكرياً ، ورأباً في هيكلة الفكر الإسلامي في الآونة الأخيرة ، يصـــعب معالجـــته فـــي ظـــل التعصب أحياناً ، والاستبداد ، وتجريد الآخريـــن مـــن المنهجية ، وسلب هويتهم الفكرية ، واتهامهم بالتبعية أحياناً أخرى .

علـــى أنـــنا لا نعدم وجود بعض الرؤى المنهجية في الأوساط الفكـــرية الإسلامية الحديثة ، إلا أنها تأتي في كثير من قضاياها لتخلط بيـــن قضـــايا المـــنهج ومضـــامين الدعوة الموضوعية ، ولم تستطع الـــتخلص مـــن النمط الموضوعي السائد ، إضافة إلى ندرتها ، وهي لا تعـــدو كونها اجتهادات فردية تفتقر إلى دقة في الضبط ، ومنهجية في التأصيل .

وينبغي ألا يُفهم من هذا أننا نقلل من قيمة الاجتهاد الفردي ، أو نقـــدح فـــي طبيعته ، فهو نواة البناء المنهجيّ ، أو الانطلاقة إلى آفاق المـــنهج الراشد ليتبناه جماعات العلماء بالنقد والتقويم لتمييز جيده من رديئه ، وغثه من سمينه .

علـــى أنـــه لم توجد في تاريخ الحضارات العالمية ، والثقافات الإنسانية ، وميادين الأفكار العالمية الكبرى ثقافات " جماعية " لم تمر

بهـذه المـراحل الفردية ، فلا يمكن تصور قيام صرح فكري عملاق بدون لبنات انبثقت من عقول فردية .

علـى أنـنا لا ننسـى الفوارق بين الثقافات والحضارات من الاخـتلافات الحـادة المتناقضـة ، أو بعـض رموز التشابه القوي ، والمؤثـرات الفاعلة .. لكن يكفينا الإماءة إلى أن هذه الرؤى المنهجية الفـردية فـي المحـيط الإسـلامي تنضبط بضوابط عقدية ، وتتخلق بأخلاقـيات دينية ، وتلتزم بمبادئ موضوعية صادقة ، وتتميز برؤية أمينة إذا ما قورنت بالأفكار المغايرة .

وأياً ما كان فقد ظلت قضايا منهج الاستدلال الدعوي في حاجة ملحة لمن يلقي الضوء عليها ، أو يفجرها ، ويستخرج كوامن كنوزها ويسـهم بفاعلـية فـي إثـراء الحركات الدعوية في سائر ميادينها ، ومختلف اتجاهاتها .

وقـد كان ومازال غياب هذه القضية عن العمل الدعوي محل نقـد لاذع مـن قِـبل بعـض المتخصصين في التخصصات المغايرة لتخصص الدعوة الإسلامية ، دفعتهم إلى القول بأن قسم الدعوة " غير متخصـص وغير أصيل " . ومن حق كل باحث أن يحل محل الداعي ومن حق أي قسم أن يحل محل قسم الدعوة .

إنهـا مشكلة خطيرة قفز فيها البعض فوق الحدود الفاصلة بين التخصصـات ، والثوابت الكائنة الأصيلة لقسم الدعوة ، باعتبـاره

كياناً يشرف المنتمين إليه ، وباعتباره قسماً علمياً متخصصاً .

لكنـــي أعـــود لألتمس العذر لهؤلاء ، لأن قضايا المنهجية فعلا غابت عن جُلِّ البحوث والدراسات والممارسات الدعوية ، وليس معنى هذا أن دراسات الدعوة مجدبة وعقيمة .. فثمة دراسات نامية ومتنامية .. ثـــرية وواعدة .. خصبة بالرؤى والتصورات الدقيقة ، والتحليلات العلمية ، تتعلق بالهدم والبناء ، والإثبات والنفي ، والقبول والرفض ، والأخـــذ والـــرد في مجال مقارنة الأديان والفكر والثقافة ، مما أثرى الجـــدل العلمـــي الهـــادف والبناء في حركات النقد للأفكار ، ووضع الضوابط والأصول والمعايير القيمية والبنائية .

لـــذا رأيت من الأهمية دراسة هذا الموضوع ومعالجته على أن أهميته تتلخص فيما يأتي :

١ – بيان ثراء القرآن الكريم بقضايا المنهج الاستدلالي .

٢ – بـــيان أثـــر منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم في إثبات قضايا الدعوة .

٣ – صبغ الدراسات الدعوية بالمنهجية العلمية .

خطة البحث :

تتكون خطة البحث مما يلي :

أولاً : المقدمة وتتضمن ما يلي :

أ : بيان أهمية الموضوع وسبب اختياره .

ب : بيان منهج البحث .

ثانياً : التمهيد ويتضمن ما يلي :

أ : التعريف بالمنهج .

ب : التعريف بالدليل .

ج : التعريف بالاستدلال .

هـ : التعريف بالمنهج الاستدلالي .

و : التعريف بمنهج الدعوة الإسلامية الاستدلالي في القرآن الكريم .

ثالثاً : موضوع البحث ويشتمل على ثلاثة فصول هي :

الفصل الأول : طبيعة الأدلة الدعوية في القرآن الكريم .

الفصل الثاني: قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم .

الفصل الثالث : مقاصد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم .

منهج البحث :

سوف أعتمد في هذا البحث على المنهج الاستدلالي الذي يعتمد على ما يلي :

[١] المنهج الاستقرائي حيث تقتضي طبيعة البحث استقراء النصوص واستقصائها في معرض التأمل والتفكر والنظر الفاحص والتصور الدقيق لمقتضيات النصوص وشاراتها الدلالية .

[٢] المنهج الاستدلالي الذي يعتمد على التحليل والتركيب .. تحليل النصوص ، وتركيب المقدمات ، وترتيب النتائج ، كما يعتمد على الاستنباط الذي يتطلب تقديم النص واستخلاص ما يتضمنه من أحكام ، ويعتمد على إجراءات القياسات ، وبيان المعطيات ، وإبراز البراهين والخلوص من ذلك كله إلى نتائج تتسم بالموضوعية والعقلانية ، تنبثق من النص ، وتنسجم مع العقول ، وتتفاعل مع المدارك والفهوم .

وهذا ما يخدم إجراءات استنباط قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ، لبيان منهجيته في إثبات قضايا الدعوة ونفي دعاوى المنكرين والمعارضين والمشككين ، ومعرفة كيفية بناء الأدلة واستنباط الأحكام ، ودحض الحجج ، وبيان فساد الدلالة من صحتها التي هي من لوازم المنهج النقدي .

[٣] كما أعتمد في منهج البحث على سوق النصوص القرآنية الكـــريمة ، واســـتنباط القواعد المنهجية الاستدلالية منها ، ثم تأصيلها وتقعيدها .

وأنـــوه إلى أن ما توصلت إليه من هذه القواعد المنهجية ، وما قمت به من تأصيل وتقعيد لها ليس كل ما تتضمنه آيات القرآن الكريم مـــن قواعد منهجية استدلالية ، فالقرآن مفعم بهذه القواعد وحسبي ما وفِّقت إليه منها ، وقد يوفَّق إلى غيرها آخرون .

وأسأل الله تعالى أن يوفقني وإياهم إلى ما يحقق مقاصد الدعوة الإســـلامية ، ويضبط مساراتها وفق منهجية علمية منضبطة بمعطيات الوحي الإلهي ومضامينه والتي يتضمنها القرآن الكريم .

وأخيراً ما أختتم به مقدمتي هذه قول الله تعالى :

﴿ ربـــنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كمـــا حملـــته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعـــف عـــنا واغفـــر لـــنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

فجر يوم الجمعة الموافق

٢٥ جمادى الأولى ١٤٢٤هـــ / ٢٥ / ٧ / ٢٠٠٣م .

التمهيد

رات
com

تعريف المنهج

مدخل :

يعد المنهج واحداً من القضايا الكبرى التي شغلت العقل البشري في القديم والحديث ، واجتذبت العلماء والمفكرين والمثقفين والفلاسفة والنقاد الذين يتمتعون بالحس النقدي ، والرؤية البنائية للمعاني والأفكار والمعارف ، وقد انصرف اهتمام هؤلاء وأولئك إلى هذه القضية للبحث في كنهها وماهيتها ، وطرائقها ، وأدواتها ، لترشيد الفكر وبناء عقل معرفي منضبط الإدراك ، يمكنه التفكير بعمق ودقة في مهايا الأشياء ، يجمع بين اليقين والحذر ، والافتراض والتحوط ، والاحتمال والقطع .

على أن هذا لم يكن جمعاً بين متناقضات أو متقابلات ، وإنما يعكس مدى الحيطة ، والحذر ، والروية ، والأناة في سبر أغوار القضايا ، والتعرف على مفاهيمها وإطلاقاتها وقيودها قدر الإمكان .

وهذا ليس من باب الوصول بالعقل إلى درجة العصمة بقدر ما يقصد به وصوله إلى درجة من النضج الفكري ، والتفتق الذهني .

ولا يعني اهتمام العلماء بقضية المنهج وتطبيقاتها أن كل المعارف المنهجية كانت صائبة ، ومع ما جانبها من الصواب ، وما غاب عنها من الحكمة والوعي الدقيق في بعض الأحيان ، فإن ذلك

لا يقلــل من الجهد المبذول من المعنيين بقضايا المعرفة وأهميتها في سبيل بناء العقل ، وترشيد مداركه ومعارفه .

بــيْد أن العقــيدة الصحيحة واليقين والثبات والإيمان كان وراء تفتق ينابيع الحكمة من عقول انضبطت معارفها بالوحي الإلهي وحكمة النبوة .

مــن ثــم تعددت تعريفات العلماء للمنهج ، وإن كان التعدد لا يحمــل مــن وجهــة نظــر البعض مضامين الاختلاف ، وإنما يحمل مضامين الكثرة والتنوع ، صياغة وأسلوباً وأداءً وفكراً .

وهذا – فيما أرى – يرجع إلى مدى عمق النظرة وسطحيتها ، وإلى قناعات الباحث الفكرية ، وثوابته العقدية ، ويقينه الديني .

وعلــى كــلٍ ، فسوف ننتقي من هذه التعريفات ما يبعدنا عن الاخــتلاف والخوض في غمار الفلسفات ، والتشقيقات الجدلية ، يقيناً منا بأن هذا البحث في غنى عن سرد كل هذه التعريفات ، وأنه يكفينا في هذا الصدد بيان الدقيق منها .

وقــبل أن نبيــن ذلك ، أود أن أعرِّج على تعريف المنهج في إطلاقات اللغة ، لأن الاصطلاح ينبثق دائماً من وعاء اللغة .

أولاً : المنهج في اللغة :

وردت مادة (ن هـ ج) في اللغة بمعان عدة ، منها :

(" نَهَجَ " الطريقُ نهجاً ونهوجاً : وضَح واستبان ، ويقال : نهج أمره ويقال نهجَ الطريقَ : بينه ، وسلكه ، و" أنهجَ " الطريقُ وضح واستبان و" انتهج " الطريقَ : استبانه وسلكه ، واستنهجه : صار نهْجاً ، و" نهج " سبيل فلان سلك مسلكه .

و" المنهاج " الطريق الواضح ، وفي التنزيل العزيز ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾ (١) .

والمنهاج – أيضاً – الخطة المرسومة . ومنه منهاج الدراسة ، والتعليم ونحوهما – والجمع – مناهج .

و" النهج" : البيِّن الواضح (...) والطريق المستقيم الواضح . يقال : هذا نهجي لا أحيد عنه) (٢) .

تأملات في المعنى اللغوي :

لاشك – كما هو واضح – أن هذه الاشتقاقات لمادة نهج تتمحور حول عدة معان كلها تخدم غرضاً واحداً ، هو الاستقامة والوضوح

---

(١) سورة المائدة (٤٨) .

(٢) المعجم الوسيط مادة (ن هـ ج) (٢ / ٩٥٦) المجمع اللغوي . ط (٢) القاهرة ، وراجع لسان العرب لابن منظور (٦ / ٦٨١) دار الفكر العربي . بدون تاريخ .

والبيان ، وهذا لا يتأتى إلا بالتحري والتدقيق والتحقيق والتقعيد والضبط وإحكام التخطيط ، مما من شأنه ضبط مدارك العقول والارتقاء بالأفكار إلى درجة من النضج العقلي الذي يستقيم وفطر الإنسان ، وينسجم مع ملكاته وقدراته ، وطاقاته الإبداعية ، ومناهج تفكيره .

ثانياً : المنهج في الاصطلاح :

ورد في التعريف الاصطلاحي للمنهج – كما أسلفنا – كثرة من التعريفات ، ومع تعددها وتنوعها إلا أنها تصب في معين المعنى اللغوي ، بل وتنبثق عنه ، وتنفتق عن دلالالته ، وتخلص لمضامينه وغاياته .

ومن هذه التعريفات ما يلي :

١ – (المنهج [١] :هو علم التفكير ، أو طريقة كسب المعرفة.

٢ – الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسته للمشكلة ، لاكتشاف الحقيقة .

٣ – وهو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة ، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين ، أو من أجل

---

[١] منهج البحث في العلوم الإسلامية : د . محمد الدسوقي(ص٤٣) دار الأوزاعي . ط (١) ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ومقدمة في أصول المنهج : د / عائشة عبد الرحمن (ص ٢٢) البحوث والدراسات العربية بمصر ١٩٧١م .

البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين) [١] .

ويجمع هذه التعريفات – كما يرى بعض الباحثين – (الخطة أو القواعد التي يأخذ بها الباحث في الدراسة العملية).

ويتفق مع هذا وإن كان أدق منه ما ذهب إليه د / عبد الرحمن بدوي من أن المنهج هو : (الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على مسير العقل ، وتحديد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة) [٢] وهذا ما أرجحه .

بيان مفردات هذا التعريف :

(١ – يقصد بـ " الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة ": الطريق الذي إذا سلكه الباحث أدى به إلى الكشف عن الحقائق ، ولكن يشترط له الوضوح والبيان والاستقامة ، لصيانة هذه الحقائق من الخلط أو اللبس .

٢ – ويقصد بقوله : " في العلوم " أن هذا المنهج منهج عام ينتظم سائر العلوم النظرية والعملية ، وليس خاصاً بمنهج بعينه من مناهج البحث العلمي ، وإن كانت هذه المناهج لا تخرج عن إطاره

---

[١] د. الدسوقي : منهج البحث في العلوم الإسلامية (ص ٤٣) . مرجع سابق .

[٢] مناهج البحث العلمي : د . عبد الرحمن بدوي (ص ٥) وكالة المطبوعات بالكويت ، ط (٣) ١٩٧٧م .

العـــام ، وإن تمـــيز بعضـــها عن بعض بخصائص معينة لتبقى هذه الخصائص تمثل التعريف الخاص للمناهج المختلفة .

٣ – ويقصـــد بـــــ " بواســـطة طائفـــة من القواعد العامة " : الضـــوابط التي تضبط منهج البحث العلمي بوجه عام ، وتعصم العقل من الزلل ، وتضمن للباحث صحة المسار ، وصحة المقدمات المقعَّدة بها ، والنتائج المترتبة عليها .

٤ – ويقصد بقوله : " التوصل إلى نتيجة معلومة " : نتيجة تفيد العلـــم الضـــروري على وجه اليقين والقطع لا العلم الظني القائم على التخمين والحدس) [١] .

من ثم تتبين دقة هذا التعريف وشموليته لطبيعة المنهج وطبيعة ضوابطه والأهداف والغايات التي يتوخاها الباحثون والعلماء منه .

إطلاقات مادة (ن هـ ج) في القرآن الكريم :

عـــندما نقـــرأ آيات القرآن الكريم ونتدبرها ، ونتتبع اشتقاقاتها سنجد أن مادة (ن هـــ ج) لم ترد في القرآن الكريم إلا باشتقاق واحد فقط هو (المنهاج) ، مما يجعلها أقل المواد اللغوية إطلاقاً في القرآن الكريم ، وإن كان هذا الاشتقاق يخلص لأحد إطلاقات المادة في القرآن

---

[١] منهج المستشرقين الاستدلالي . دراسة نقدية : د / أحمد أبو شنب (ص ٢٢٧٠ ، ٢٢٧١) حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية فرع جامعة الأزهر الشريف بطنطا . العدد العاشر ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

الكريم ، إلا أنه جاء بمعنى الطريق الواضح البين المستقيم ، الذي إن سلكه السالك اهتدى به إلى صراط الله المستقيم .

يقول الله تعالى ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾ [١] .

تعريف الدليل :

أولاً : في اللغة :

تأتـــي اشـــتقاقات مادة (د ل ل) في اللغة لتدور حول معنى الاهتداء والإرشاد ، ومن ذلك ما يلي :

(" الدليل " : المرشد ، و" أدله " ، و" أدلاء" ما يستدل به .

و" الدلالة" الإرشاد .

و" الدليلة " : الدليل الواضح) [٢].

(و" الدلـــيل " ما يستدل به ، و" الدليل " الدال ... وفلان يدل بفلان : يثق به . و" الدل " قريب المعنى من الهدى) [٣] .

دلالات التعريف اللغوي :

من خلال التعريف الاشتقاقي للدليل يتضح ما يلي :

١ – أن الدلـــيل يحمل معنى الإرشاد والهدى ، وهو ما يستدل به على شئ ما على نحو واضح بيِّن إثباتاً أو نفياً .

---

[١] سورة المائدة (٤٨) .

[٢] المعجم الوسيط (١ / ٢٩٤) مرجع سابق . وراجع : لسان العرب مادة (د ل ل) .

[٣] مختار الصحاح (ص ٢٠٩) .

٢ – أنه استخدم بمعنى التوثيق .

وبناء عليه فإن الدليل الواضح البين يكون له أثره المباشر على الوثــوق بما يحمله من دلالات ، وما يُنتزع منه من أحكام على وجه الإرشاد والاهتداء .

وهو – إن صح – يفيد الوثوق بالمعارف والقناعات على نحو يقيني ، سواء أكانت مثبتة أو منفية .. صحيحة أو خاطئة .

ثانياً : الدليل في الاصطلاح :

يأتــي معــنى الدلــيل في مباحث الأصوليين بأنه : (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري) [١] .

ويطلــق على " المطلوب الخبري " عند الأصوليين : (الحكم الشرعي) [٢] .

على أن التوصل بالدليل إلى هذا المطلوب الخبري مشروط بأن يكــون عن طريق النظر الصحيح ، لأنه يفيد العلم الصحيح ، وتنبني عليه نتائج علمية صحيحة .

---

[١] أصول الأحكام للآمدي (١٣ / ١١) نقلاً عن الوجيز في أصول الفقه ، د / عبد الكريم زيدان (ص ١٤٧) مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٧م .

[٢] الوجيز في أصول الفقه (ص ١٤٧) وعلم أصول الفقه : د / عبد الوهاب خلاف ص ٢٠ مكتبة الدعوة الإسلامية ط (٨) ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م وراجع في مباحث متعلقة بالدليل : ميزان الأصول في نتاج العقول (المختصر) للسمرقندي تحقيق محمد زكي عبد البر ص ٦٩ وما بعدها . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر ط (٢) ١٤١٨هـ / ١٩٨٤م .

علـــى أن صـــحيح المنقول لا يخالف صحيح المعقول (فالأدلة الشـــرعية لا تنافـــي العقول ، لأنها منصوبة في الشريعة لتعرف بها الأحكـــام ، وتســـتنبط مـــنها ، فلو فاتنا لفات المقصود منها ، كما أن الاســـتقراء دل على جريان الأدلة على مقتضى العقول ، بحيث تقبلها العقول السليمة ، وتنقاد لمقتضاها طائعة أو كارهة ، ولا كلام في عناد معاند ولا في تجاهل متعامٍ) [١] .

مـــن ثـــم يتبين أن الهداية والإرشاد قاسم مشترك بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي للدليل .

ثالثاً : تعريف الاستدلال :

الاســـتدلال هو : (البرهان الذي يبدأ بقضايا يسلَّم بها ، ويسير إلـــى قضـــايا أخرى تنتج عنها بالضرورة دون التجاء إلى التجربة ، وهذا السير إما بواسطة القول أو بواسطة الحساب) [٢] .

على أن ثمة فرقاً بين الاستدلال والبرهنة .

(فالاستدلال : عملية منطقية ننتقل فيها من قضايا بقطع النظر عن صدقها أو كذبها ، إلى قضايا ناتجة عنها .

أما البرهنة : فهي أخص من الاستدلال ، لأنه يشترط فيهـــا

---

[١] الموافقات للإمام الشاطبي (٣ / ٢٠) مرجع سابق .

[٢] مناهج البحث العلمي : د . عبد الرحمن بدوي (ص ٨٢ ، ٨٣) مرجع سابق .

التسليم بصدق المقدمات [١] .

تعريف المنهج الاستدلالي :

وقد عرف العلماء المنهج الاستدلالي بأنه : (هو الذي نسير فيه من مبدأ إلى قضايا تنتج عنها بالضرورة دون التجاء إلى تجربة) [٢] .

ويسمى بالمنهج الرياضي أو الاستنباطي ، (لأنه يقوم على التحليل والتركيب والاستنباط ، إذ أن نتائجه مستخلصة من مقدمات) [٣] .

وهذا التعريف يحدد طبيعة المنهج الاستدلالي وأطره وقضاياه فهو منهج يعتمد على مقدمات ونتائج ، وأحكام وأدلة في عملية تتمحض للاستنباط ، وتخلص لتعقيد قواعد بناء الأدلة على أساس من التحليل والتركيب .

أضف إلى هذا أنها عمليات عقلية لا تتوقف صحتها أو انبثاقها عن تجربة سابقة ، كما أنها لا تقتصر على الإثبات فقط دون النفي ، أو النفي دون الإثبات ، وإنما تشملهما معاً .

---

(١) مناهج البحث العلمي (ص ٨٢ ، ٨٣) .

(٢) نفس المرجع (ص ١٨) ، ومحاضرات في قواعد البحث العلمي : د / صفوت شاكر مهنا (ص ٢٧) ط ١٩٩٠ بدون دار طبع . وتطبيق المنهج الرياضي في البحث العلمي عند علماء المسلمين : د / محمد علي الجندي (ص ٤٣) ط (١) دار الوفاء المنصورة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

(٣) محاضرات في قواعد البحث العلمي : د / صفوت مهنا (ص ٢٧) مرجع سابق . وراجع منهج المستشرقين الاستدلالي . دراسة نقدية للمؤلف (ص ١١) وما بعدها . مرجع سابق .

ولا مـــرية أن لهذه الطبائع والأطر أثر كبير في عملية " الهدم والبـــناء " فـــي معرض الاستدلال ، بل إنها تعتبر أساساً قوياً ومتميزاً ولازماً لهذه العملية .

ولا مناص لكل صاحب دعوة أو رؤية أو تصور من الاعتماد علـــيها ، وإلا باتت دعوته أو رؤيته أو تصوره بلا دليل ، ولا اعتبار لآراء وتصورات ودعوات عرت عن الأدلة .

وهـــذا مـــا يتفق مع المنطق ، وينسجم مع الواقع ، وبدون ذلك تكـــون الآراء والتصورات غير معقولة ، وغير منطقية ، مما يجعلها مدعاة للرفض والإنكار .

رابعاً : تعريف منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم :

في ضوء ما سبق من تعريف المنهج ، والدليل ، والاستدلال ، والمـــنهج الاستدلالي ، نستطيع أن نحدد ملامح واضحة لتعريف منهج الدعوة الإسلامية الاستدلالي في القرآن الكريم فنقول :

هـــو مجموعة القواعد المنهجية التي يرسيها القرآن الكريم في معـــرض الاستدلال على تقرير قضايا الدعوة الإسلامية إثباتاً أو نفياً ، والتـــي يصـــل الباحـــثون إلـــيها عـــن طريق الاستنباط المعتمد على الاستقراء والتحليل والتركيب .

تأملات في هذا التعريف :

إذا تأملـــنا هذا التعريف لمنهج الدعوة الإسلامية الاستدلالي في القرآن الكريم سنجد ما يلي :

[١] إن هذا التعريف يحدد طبيعة منهج الدعوة الاستدلالي في القــرآن الكريم من حيث أنه قواعد أرساها القرآن الكريم ، وتتضمنها آياتـــه الكـــريمة غير مستنبطة ابتداء ، لأن الله تعالى منزه عن ذلك ، فالاســـتنباط عمـــل عقلـــي بشـــري ينسجم مع طبيعة العقل البشري ، ويتنافى مع مقتضيات وخصائص الذات الإلهية التي تتفرد بكمال العلم والإحاطة ، والعلم الإلهي منزه عن النظر والاستنباط .

[٢] إن القـــرآن الكريم في منهجه الاستدلالي إذن يفتح للعقل البشـــري آفاقـــاً رحبة من التفكر ، والتأمل ، والنظر السليم ، والرؤية الناضجة في عملية " التدليل " أو " بناء الأدلة " .. إثباتاً ونفياً .. تأييداً ومعارضـــة ، قـــبولاً ورفضـــاً ، وآياتـــه الكريمة غنية بتلك القواعد المنهجـــية التي يمكن لنا استنباطها وتقعيدها لضبط عملياتنا الاستدلالية فـــي معـــرض الدعوة ، إذا ما أردنا منهجاً راشد للاستدلال ، وتفعيلاً لعمليتـــي " الإقـــناع " و" الاقتـــناع " لأنهمـــا مـــناط القبول والاعتقاد والقناعات.

[٣] إن هـــذه القواعـــد إذا ما صفت في استنباطها العقول ، فخلصت للحق ، وتجردت من الهوى والمذهبية والغرض لن تختلف

حولها الفهوم .

ولا يعنـــي نفي الاختلاف عدم التنوع ، فإن التنوع من ثمرات الاجـــتهاد ، وهـــذا يؤكـــد تفاعل الآيات القرآنية مع العقول وانفتاحها لاستيعاب المستجدات الطارئة ، ومعالجة مشكلات البشرية .. والتنوع لا يعني التغير وإن كان يعني التعددية ، فالقرآن الكريم ليس من قبيل الأغيار .

[٤] إذا مـــا حـــدث تعارض في استنباط هذه القواعد ، فمرد ذلـــك إلى قصور في الفهم والإدراك ، أو خطأ في أدوات الاستدلال ، وليس مرده إلى الآيات القرآنية ، فهي منزهة عن ذلك .

[٥] ولعل رسول الله ﷺ كان على معرفة بطبيعة منهج القرآن الكـــريم في الاستدلال ، لكنه لم يكن ليقعِّد لمنهج علمي أو بحثي حتى يبرز هذه القواعد ويؤصل لها ، وإنما كان صاحب دعوة يبلغ عن الله تعـــالى مـــا يوحـــى إليه ، وتبقى هذه العملية مهمة العلماء والباحثين والدارسين لقضايا الدعوة تستغرق جهدهم ، وتشحذ هممهم لاستنباطها وإبرازها إلى حيز الواقع لتنضبط بها منهجيتهم في الدعوة إلى الله ﷻ .

[٦] ومـــما ينبغـــي مـــراعاته ، ونحـــن نعقد لمنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ضرورة التفريق بين منهج الدعوة ومنهج الدعـــاة ، فمـــنهج الدعوة واحد لا يتغير وإن تنوع وتعدد ، ولا يكون عرضة للاختلاف على نحو ما سبقت الإشارة إليه ، أما مناهج الدعاة

الفصل الأول

بيان طبيعة الأدلة
في
القرآن الكريم

رات
:om

فقد تختلف ، وقد لا تختلف.. تختلف إذا ما خضعت للمذهبية والرأي ، وقامـــت على التحكم والفرض ، ولا تختلف إذا ما انضبطت بضوابط المنهج الدعوي في القرآن الكريم والسنة الشريفة .

وقـــد يـــرجع ســـبب اخـــتلافها إلى قناعات الدعاة الخاصة أو اتجاهـــاتهم الفكـــرية ، ورؤاهـــم الإصلاحية ، وتصوراتهم لمضامين وضـــوابط النهضة ، وقد يكون وراء اختلافهم عوامل فكرية أو نفسية أو سياسية أو اجتماعية ، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات .

وربما كان لهذه العوامل أثر في تقسيم هذه الرؤى والتصورات الإصلاحية إلى اتجاهات ومدارس في ميادين العمل الدعوي .

وتـــبقى لكل جهوده المشكورة إذا ما صدق المنهج ، وخلصت النيات ، وإذا ما تم الانتصار للحق لا للمذهب أو المدرسة أو الاتجاه.

بيان طبيعة الأدلة

يعتمد القرآن الكريم في منهج الدعوة الاستدلالي على بيان طبيعة الأدلة ، لما لتلك القاعدة من آثار قوية إلى جانب غيرها من القواعد .

على أن طبيعة الأدلة يتوقف عليها نجاح الداعي في إقناع المدعو بقضيته التي يدعو إليها ، ويدلل على صحتها .. والعقل إذا كان يقتضي الدليل ، ويطلب طرح ما عند الغير من دلالات على صحة دعواه فهو لا يطلب أي دليل ، وإنما يريد من الأدلة ما يقنعه وما يشبع نهمه من تطلع إلى المعرفة الجادة ، وإرواء نظراته النقدية ، وتأملاته التحليلية ، واتجاهاته الوصفية ، وصيغه البنائية وإجابته عما يطفر أمامه من تساؤلات ، وما يعِنُّ له من مشكلات ، وما يطرأ له من قضايا ، وما يواجهه من أزمات .

فصيغ العقول تقتضي أن تكون الأدلة على مستوى راق يتناسب مع طبيعة الإدراك العقلي ، ويتناغم مع وسائله ، ولو لم تأت الأدلة على هذا النحو ما قنع العقل منها بشئ ، وربما كانت مظنة الاتهام بالقصور ، وعدم الارتقاء إلى مستوى الإقناع ، وبالتالي ستقابل بالاستهجان والاستغراب ، وربما الإنكار .

ولأن القرآن الكريم منَّزل من عند الله تعالى ، ولأن الله تعالى خبير بصنعته ، فقد جاء منهج الاستدلال الدعوي في القرآن الكريم ،

ليراعـــي من خلال هذه القاعدة طبيعة العقل ، ومدى طموحه وطبيعة عمله ، وقدراته وطاقاته وإمكانياته ووسائله .

من ثم نجده يطرح للعقل الكثير من الأدلة ، ويعلمه صيغ البناء الدلالـــي الصحيح ، وما ينبغي أن يتوفر فيه ، وما يجب أن يُنأى عنه من خلال طبيعة أدلته ، وطبيعة منهجه في بنائها .

ولـــذا توفـــرت أدلة منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم علـــى معـــالم مـــتعددة توضح طبيعتها ، وتبين قدرتها على الإقناع ، وقوتها من حيث " الهدم والبناء " ، و" الإثبات والنفي " .

وتبدو طبيعة هذه الأدلة من حيث أنها :

١ – ربانية .
٢ – الإحاطة والشمول .
٣ – بينة .
٤ – متفقة مع الواقع .
٥ – منسجمة مع العقل .
٦ – مؤثرة .
٧ – قاطعـــة .
٨ – ملزمة .

تأصيل قاعدة بيان طبيعة الأدلة

المبحث الأول

& ربانية الأدلة &

تعد " **ربانية الأدلة** " واحدة من أبرز طبيعة الأدلة وأهمها على الإطلاق من حيث أنها ربانية المصدر أي إنها من عند الله تعالى ، لذا فقد جاءت خبيرة بطبيعة الإنسان، وقناعات العقول، مراعية لمستويات الإدراك ، وعنها تنبثق طبائع الأدلة الأخرى .

ولا يخفى ما للأدلة بهذه الطبيعة من أهمية .. فهي تقابل – إن صدق التلقي – بالوثوق ، لأنها ليست من معطيات العقول وقرائحها ، وإنما من نفحات الوحي الإلهي المعصوم ومقتضياته .. المتسمة بكمال الإدراك ، ودقة التناول ، وعمق الدلالة .. المنزهة عن التفاوت والسطحية والقصور ، وتلك من لوازم العقل .

ودليل هذا :

١ – قول الله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا بالذِّكْر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [١] .

٢ – وقوله تعالى ﴿ **هو الذي يُنزِّل على عبده آيات بينات**

---

[١] سورة فصلت (٤١ ، ٤٢) .

ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤف رحيم ﴾ [١] .

٣ – وقوله ﷻ ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾** [٢]

فـــثمة آيات كثيرة إلى جانب هاتين الآيتين تبينان طبيعة الأدلة الربانية ، فالله تعالى هو منزل الكتاب على نحو من الإحكام ، وأودع فـــيه حكمـــته تعالى ، وحفظه من التبديل والتغيير والتحريف ، وهذا مدلـــول قـــول الله تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكـــر وإنا له لحافظون ﴾ وقوله ﴿ هو الذي ينزل على عبده ﴾ .

---

[١] سورة الحديد (٩) .

[٢] سورة الحجر (٩) .

المبحث الثاني

& وضوح الأدلة &

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم وهي في مجملها أدلة يتبين أنها بينة الدلالة ، واضحة المعاني ، وبهذا الوضوح والبيان ينتفي اللبس والخلط ، ويزول الإبهام ، والغموض ، ويترتب على ذلك رسوخ الدلالة ، ورسوخ القضايا " مثار الاستدلال " في الذهن ، ويتلاشى على أثرها الحيرة والتردد والتيه الذي ينشأ عن عدم وضوح الدلالة وإبهامها .

وذلك أن الأدلة ينبغي أن تكون هادية ، ولا يتحقق هذا مع غموض وخفاء ، فكيف يهتدي المدعو بشئ لا يفقه طبيعته ، ولا يعرف مدلوله ؟! ، بل كيف يعتنقه ويؤمن به ويصدقه ؟!!

ولعل هذا ما أشار إليه العلامة السمرقندي في تعريفه " **البينة** " بقوله : (هي في اللغة مأخوذة من البيان ، وهو الظهور والإظهار ومن البينونة ، وهو الفصل : سمي المعنى الظاهر الفاصل بين الحق والباطل بيِّنة . وهي في الأصل اسم لما يوجب العلم قطعاً .

ثم في العرف صارت مستعملة في الأمرين ، ولهذا سميت الشهادة في باب القضاء بينة ، وهي ليست بقاطعة) [١] .

---

[١] ميزان الأصول في نتائج العقول المختصر للإمام السمرقندي ، تحقيق : د / محمد زكي عبد البر (ص٧٣) ط (٢) إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر ١٤١٨هـ/١٩٧٨م

فالأدلـــة بينة ، لأنها تفصل بين الحق والباطل ، وتظهر الأول على الثاني ، وتبرز المعاني وتوضحها ، وهي موجبة للعلم قطعاً .

مـــن ثم ندرك قيمة تركيز منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم على بيان طبيعة الأدلة من حيث بيانها .

ومن أدلة ذلك في القرآن الكريم ما يلي :

١ – قوله ﷻ ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين**﴾ [١]

٢ – وقولـــه تعالى ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين** ﴾ [٢] .

٣ – وقولـــــه تعالى ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ [٣] .

٤ – وقوله تعالى ﴿ **الر تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ [٤] .

٥ – وقوله تعالى ﴿ **الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين** ﴾ [٥]

---

[١] سورة المجادلة (٥) .
[٢] سورة النور (٣٤) .
[٣] سورة النور (٤٦) .
[٤] سورة يوسف (١) .
[٥] سورة الحجر (١) .

٦ – وقولـــــه تعالى مخبراً عما دار بين نبي الله موسى عليه السلام وفـــرعون مـــن مجادلة : ﴿ **قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المســـجونين . قال أو لو جئتك بشئ مبين . قال فأت به إن كنت من الصـــادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم** ﴾ (١) .

٧ – وقولـــــه تعالى ﴿ **هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم** ﴾ (٢) .

دلالات التأصيل :

[١] إن الآيات الكريمة جاءت لتبين وضوح دلالات نصوصها وأنه لا عذر لمعتذر بعد ترك هذه الدلالات ، وتجاهل وضوح دلالاتها وبـــيانها لقضايا الدعوة ، وهذا مدلول قول الله تعالى " وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين " .

[٢] تبيـــن الآيات الكريمة أن وضوح دلالات نصوصها جاء لهدايـــة الناس إلى الحق ، وعلى نحو يتحقق معه الانتفاع بما فيها من مواعـــظ وعبر وآيات ، ومن علة بيانها أنها جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .

---

(١) سورة الشعراء (٢٩ – ٣٢) .

(٢) سورة الحديد (٩) .

وهذا مدلول قوله تعالى " هو الذي ينزل على عبده آيات بينات لـــيخرجكم مـــن الظلمـــات إلى النور " وقوله تعالى " لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " .

[٣] إن إنكار الأدلة بعد تبين وضوح مدلولاتها وقطعية ثبوتها لا يعدو كونه حماقة أو خبل أو خبط ، ومدلول هذا آيات سورة الشعراء التـــي ذكـــرت ما دار بين فرعون ونبي الله موسى عليه السلام من مجادلات وإصـــرار فرعون على إنكار الأدلة بعد وضوح دلالاتها على صدق نبي الله موسى عليه السلام في دعواه النبوة وضوحاً دحضت على أثره حجج فـــرعون ، وتبين تهافت فكره ، وضحالة عقله ، وفساد اعتقاداته في تأليه ذاته أو ادعائه الألوهية .

المبحث الثالث

& اتفاق الأدلة مع الواقع &

مـــن طبـــيعة الأدلـــة الدعوية في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم أنها تأتي متفقة مع الواقع غير نابية عنه أو مجافية له ، أو متناقضة معه .

وكـــيف لا وهـــي تحثنا على فقه الواقع وتأمله وتدبره وتسيير النظر في آياته ، واستخراج كوامن أسراره .

وكيف لا وقد استنطق القرآن الكريم الواقع بها .. فهي مأخوذة مما نراه واقعاً ونشاهده ونلمس آثاره في الكون ، ومما كان واقعاً من حـــياة الســـابقين آن نزول القرآن الكريم أو كان واقعاً من إخبار عن الأمـــم الســـابقة ، وقـــد وجهنا القرآن الكريم إلى أن نتلمس آثارهم ، ونتقصى خبرهم ، ليبين لنا أنه ينصب الأدلة من واقع لا يمكن إنكاره أو تجاهله أو إغفاله ، فليس أصدق في العقول من دليل ينبثق من واقع أو من مصدر أيقنت صدقه ، وجزمت بصحة إنبائه .

فدلالـــة الواقع دلالة قطعية ، لأننا نشاهده ونراه ، ولا يمكن أن نـــنكره ، ومـــن دلالات الواقـــع استدلال القرآن الكريم بآيات الخلق وتســـيير الكون ، وإماطة اللثام عن كثير من أسراره ، والحديث عن مظاهـــر حيويته من حركة الشمس والقمر ، وحركة الأرض واتساع السماء الذي مازال يحدث في الكون حتى الآن ، والظواهر الكونيـــة

كالبرق والرعد والزلازل ، مما أثبت العلم يقينيته ، كما ينصب القرآن الكـــريم الأدلة من خلال الحديث عن الماء والزرع والثمر والحشرات والحـــيوانات والطـــيور وما فيها من منافع ومضار ، هذا على سبيل المـــثال لا الحصـــر ، فالقرآن الكريم مُتْرع بهذه الشواهد الدلالية التي تتفق مع الواقع وتنسجم معه .

وهـــذا ما يفسر به واقعية الأدلة ، ولا نعني الواقعية أن الأدلة مـــنحوتة مـــن الواقع بمعنى أنها انبثقت من البيئة بمعزل عن الوحي الإلهـــي ، فهـــذا ما لا يمكن تصوره ، وغاية القول في هذا أن القرآن الكـــريم لفت الأنظار إلى مظاهر الخلق وقضايا الكون ، ليصوغ منها أدلة واقعية لا يمكن إنكارها .

فالقـــرآن الكـــريم وحي معصوم ، ولم يأت عن طريق الانبثاق البيئي أو التأثير الاجتماعي .. ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ (١) .

---

(١) سورة فصلت (٤٢) .

تأصيل واقعية الأدلة :

من الأدلة التي تثبت واقعية الأدلة في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ما يلي :

١ - قول الله ﷻ ﴿ **إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع** ﴾ (١)

٢ - وقوله تعالى ﴿ **خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين** ﴾ (٢) .

٣ - وقوله تعالى ﴿ **قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه . بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً** ﴾ (٣)

٤ - وقوله تعالى ﴿ **قل أرءيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم . قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين . قل أرءيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الذاريات (٥ ، ٦) .
(٢) سورة لقمان (١٠ ، ١١) .
(٣) سورة فاطر (٤٠) .
(٤) سورة الملك (٢٨ : ٣٠) .

٥ – وقولـــه تعالى ﴿ **إن فـــي اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾ [١] .

٦ – وقولـــــه تعـــالى ﴿ **رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنيـــن . لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين . بل هم في شك يلعبون** ﴾ [٢] .

٧ – وقوله ﷻ ﴿ **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ [٣] .

٨ – وقولـــه تعالى ﴿ **قل أرءيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يـــوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرءيتم إن جعـــل الله علـــيكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون** ﴾ [٤] .

٩ – وقولـــــه تعـــالى ﴿ **أم خُلقوا من غير شئ أم هم الخالقون . أم خَلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المســـيطرون أم لهـــم ســـلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين** ﴾ [٥] .

---

[١] سورة يونس (٦) .
[٢] سورة الدخان (٧ : ٩) .
[٣] سورة الدخان (٣٨ ، ٣٩) .
[٤] سورة القصص (٧١ ، ٧٢) .
[٥] سورة الطور (٣٥ ، ٣٦) .

دلالات التأصيل :

لا يخفـــى أننا بالتأمل في هذه الآيات الكريمات ، وإمعان النظر فيها ، وإنعامه بها نستطيع إدراك ما يلي :

{ ١ } أحـــال مـــنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن المدعو إلى واقـــع لا يمكـــن تكذيبه ، كما لا يمكن إنكاره ، فما يوعدون محقق لا ريـــب ، وهو واقعي ، لأنه يتسم بالصدق ، وهذا مدلول قوله تعالى " إنما توعدون لصادق " .

{ ٢ } مـــن دلالات الواقـــع أن الأثر يدل على المؤثر والسير يـــدل علـــى المسير والبعر يدل على البعير ، وعليه فالخلق يدل على الخـــالق ، والصـــنعة تدل على الصانع ، والله تعالى يدل على وجوده ووحدانيـــته وإلهيـــته وقادريـــته ، خلقه وصنعته ، وهذا ما دلت عليه الآيـــات الكريمة ، فبعد أن ذكر الله تعالى معالم من خلقه ، من حيث خلقه السماء بدون عمد يرى في الواقع ، وإلقائه الرواسي في الأرض كـــي لا تميد بالخلق ، وبعد أن عدد بعض مظاهر نعمه ، وكلها أمور واقعـــية نراها ونلمسها ونشاهدها ، قال تعالى ﴿ **هذا خلق الله فأروني مـــاذا خلق الذين من دونه ..** ﴾ وقال تعالى مبطلاً عبادة ما يعبد من دونه تعالى ﴿ **ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ ؟!

فهـــل يستطيع مدع ألوهية غير الله أن يأتي من الواقع بدلالات واقعية تقطع بصحة دعواه .. مثلما جاء به القرآن الكريـــم من دلالات

واقعـــية تؤكد صدق قضايا الدين " ماذا خلقوا من الأرض " ؟! أي أثر لهم ، وأي صنعة تدل عليهم ؟!

لا شئ !!!

{ ٣ } إقامـــة القـــرآن الكـــريم الأدلة من الواقع على قدرة الله تعـــالى المطلقة في تغيير طبيعة هذا الواقع وتحدي الإتيان بغير مراده تعالى لتغيير طبيعة ما أراد الله تعالى تغييره .

وهـــذا مدلول قوله تعالى " قل أرءيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمـــنا فمـــن يجير الكافرين من عذاب أليم " ، وقوله تعالى " قل أرءيـــتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين " وقوله تعالـــى " قـــل أرءيـــتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء .." " قل أرءيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلـــى يـــوم القـــيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ... " ؟؟ وتذييل الآيتين " أفلا تسمعون " ؟! " أفلا تبصرون " ؟!

وكـــأن الله تعالى يقول لهم : أفلا تسمعون هذا الإخبار الإلهي وتـــنظرون واقعيته ، ثم أفلا تبصرون هذا الواقع الذي لا يمكن تغييره ، وذلك النظام الذي لا يمكن إبطاله ، وهذا الاستدلال متفق مع الواقع ومنسجم معه ، بل هو جزء منه ، وآية من آياته ، ومعلّم من معالمه .

المبحث الرابع

& انسجام الأدلة مع العقل &

من طبيعة الأدلة في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم أنهـــا أدلـــة معقولة لا يعجز العقل عن إدراكها ، ولا يعيا عن فهمها ، لأنها تعتمد على إقناعه بما يتفق وطبيعة عمله ، بحيث يقنع به العقل ، ويتلقفه بالقبول ، ولا يعارضه أو ينكره .

ذلـــك أن الأدلـــة راعت عند نصبها القسمة العقلية المنطقية ، ووضعت أمام العقل شارات صدق الدلالة وواقعيتها وعقلانيتها ، وقد جاءت لتراعي قدرات العقل الذهنية ، وتبصر بطرق إقناعه ومحاجته إن أنكـــر بفعـــل الحجـــب التي تحجبه وتعوقه عن التأمل الصحيح ، والـــنظر الســـديد ، ولا يـــنكر القضية بعد ثبوتها إلا جاحد أو معاند أو منكر .

ولكـــي تقـــوم الحجـــة علـــى العقل لابد من أن تقف الأدلة مع مقدماته وتنسجم مع مبادئه ، وتتفاعل مع معطياته تفاعلاً يدفع المدعو إلى التسليم بمقتضيات الأدلة ومقررات الدين ، الأمر الذي يحقق قدرة الأدلـــة الدعوية على الإقناع وإمكانيات العقل وقدراته على الاقتناع ، ثم الإذعان ، ثم الاعتقاد ، ثم اليقين .

ولـــم تطلب الأدلة الدعوية من العقل أن يوقن أولاً ، ثم يفكر ، فتلك نتائج قسرية ، وإنما أوجبت عليه أن يعمل ملكاته فيما ينصـــب

أمامه من دلالات ، وأن يستنتج منها النتائج ، ويستنبط منها الأحكام ، ومما يحقق هذا الانسجام (أن كل ما يعارض الشرع من العقليات يعلم العقل فساده) (١) .

ومـــا كان هذا ليتحقق لو أن الأدلة الدعوية جاءت مترفعة على العقل ، مجافية له ، غير متفقة معه ، أو منسجمة مع مداركه .

ذلك(أن النظر العقلي والمنطقي والإنساني يقتضي أنه لا يمكن أن يوجد أي تناقض أو اضطراب بين معطيات الوحي وقناعات العقل هـــذا الـــتطابق المنطقـــي بين العقل والحقائق المطلقة ، وما يأتي به الوحـــي ، هـــو أخطر مبدأ عرفته نظرية المعرفة ... فكل ما يقرره الوحي لابد أن يكون صادقاً منسجماً مع الواقع موافقاً له، إذ لا يتصور أن يكـــون الله ﷻ جاهلاً أو غاشاً أو مضللاً لمخلوقاته ، وعليه فإن ما يبيـــنه لهم لا يمكن أن يتعارض مع حقائق الواقع ، لأنه ما أنزله إليهم إلا للإرشاد والتعليم والهداية والتوجيه) (٢) .

سواء في ذلك الجوانب العقدية والتشريعية .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم (١ / ١٩٥) ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط (١) ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

(٢) إسلامية المعرفة . المبادئ العامة . خطة العمل . الإنجازات (ص ٩١) ، سلسلة إسلامية المعرفة (١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠١هـ / ١٩٨١م بتصرف يسير ، ومقدمة التفسير لابن تيمية (١٣ / ٣٤٠ ، ٣٤١) مرجع سابق ، دار الحرمين للطباعة ، بدون تاريخ .

(ومـــن هـــنا ندرك بعض أبعاد دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضـــي الله عـــنهما بقوله " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " [١] فـــبدون معرفة المآلات والعواقب التي تترتب على تنزيل الحكم على الواقع ، يغيب الفقه الحقيقي في الدين ، ويساء التطبيق ، ويتعسف فيه ويُعبـــث بالأحكـــام الشرعية ، الأمر الذي يؤدي إلى العنت ، وغياب الأهداف والمقاصد التي من أجل تحقيقها جاء الوحي الإلهي) [٢].

ذلـــك أن أصول الإسلام العقدية والشرعية ومبادئه وأخلاقياته تتفق مع العقل إذا ما تجرد من معوقات الإدراك ، وهي منسجمة معه فـــي أطـــواره وأفكـــاره الناضـــجة ، مما يفتح باب الاجتهاد في فهم النصوص ، واستنباط الأحكام الذي ينضبط بها الواقع [٣] ، ورد مـــا

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس بلفظ : (ضمني رسول الله ﷺ وقال : اللهم علمه الكتاب) (١ / ٢٥) كتاب العلم باب : قول النبي ﷺ (اللهم علمه الكتاب) .

وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ : (اللهم فقهه) (٢ / ٣٩٠) كتاب الفضائل ، باب : من فضائل عبد الله بن عباس .

وذكر ابن حجر في فتح الباري أن الحميدي ذكره في الجمع أن أبا مسعود ذكره في أطراف الصحيحين بلفظ : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ، وقال الحميدي هذه الزيادة ليست في الصحيحين وذكر ابن حجر أيضاً أن هذه الزيادة أخرجها البغوي في معجم الصحابة ، فتح الباري (١ / ٢٩٥) كتاب العلم ، باب : قول النبي ﷺ (اللهم علمه الكتاب) دار الغد العربي ، ط (١) ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

(٢) مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب في الاجتهاد التنزيلي . د / بشير بن مولود جحيش ص١٢ سلسلة كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف القطرية ، العدد (٩٣) المحرم ١٤٢٤هـ .

(٣) راجع في هذا : بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله (١ / ٣٥ ، ٣٥) مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط (١) ١٩٩٤م .

لم يرد فيه نص من معطيات الواقع وأطروحات الأحداث والمستجدات على القواعد الكلية المستنبطة من روح الشريعة الإسلامية والمؤيدة بنصوص الوحي الإلهي لاستنباط أحكامه .

ومما يؤكد هذا الانسجام البين بين الوحي والعقل ، بناء التكليف على الاختيار ، لتحقيق مفهوم الإرادة المنسجمة مع الوحي والعقل المنضبطة بهما ، أضف إلى ذلك أن (مصدر العقل والوحي هو الله ، فلا يمكن أن يقع التناقض والتعارض ، وأن أي تعارض معناه ضعف في سند المنقول ، أو عجز وخطأ في كيفية الاستدلال ، وعند احتمال التعارض ، فإن حكم الوحي المعصوم مقدم على حكم العقل المظنون) [١] وهكذا تحقق الإرادة المنسجمة مع الوحي والعقل .

فالدين لا يفرض قضاياه على المدعو فرضاً دون أن يقتنع بها عقلاً ، ويشعر في ذاته بصدقها ، فإذا قبلها عن طواعية وعن روية وإرادة وقصد ، صار الاعتقاد بها فرضاً عليه ، ونتيجة حتمية للإذعان لما يتفق وصيغ العقول السليمة ، ولا يعني هذا أنه ينكر على الفطرة الإيمان بقضايا الدعوة ابتداء من ذاتها دون تفكير ، فهذا يعبر عن سلامتها ، فلا معنى للتكليف مع القسر أو الفرض ، إذ التكليف

---

[١] مقدمة د / عمر عبيد حسنة لكتاب العقل العربي وإعادة التشكيل (ص ١٧) ، د / عبد الرحمن الطريري ، كتاب الأمة . وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية قطر .

مـــناطه الاختـــيار [١] ، والاختـــيار يحسمه العقل بالتفكير الراشد ، والتأمل الفاحص .

وإذا مـــا عُمِّيت المدركات عن العقول أو تُعُمد تعتيم قيمها أمام العقل ، بتعطيل وسائل الإدراك والتشويش على الفطر السليمة ، فحتماً ســـتكون النتائج سلبية وغير معقولة ، لذا تحتم أن تكون مدعاة للإنكار ومـــثاراً للـــرفض ، لأنهـــا لم تكن منسجمة مع العقل ، ولا متفقة مع معطـــياته ومـــبادئه ، مما يضفي عليه هالات من الغموض ، ودواعي الخلـــط واللـــبس يدفـــع بها إلى دائرة الإبهام ، والإبهام مثار للشك ، ومدعـــاة للارتـــياب ، مـــن ثم تحتم الحكم بعدم عقلانية المعارضة ، وتحكيم الهوى في المنازعة .

---

[١] راجع : الموافقات للإمام الشاطبي (٢ / ٤١٥) وما بعدها ، تحقيق : د / عبد الله دراز ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط (٣) ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

تأصيل انسجام الأدلة مع العقل

من الأدلة القرآنية على هذا ما يلي :

١ – قـول الله تعـالى ﴿ كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ [١] .

٢ – وقوله ﷻ ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ [٢]

٣ – وقوله ﷻ ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [٣]

٤ – وقولـه تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [٤] .

٥ – وقوله ﷻ ﴿ ليدَّبروا آياته وليتذكر أولي الألباب ﴾ [٥] .

٦ – وقولـه تعالى ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ [٦] .

٧ – وقولـه تعالى ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ [٧] .

---

[١] سورة البقرة (٧٣) .
[٢] سورة البقرة (٢٤٢) .
[٣] سورة الزخرف (٣) .
[٤] سورة العنكبوت (٤٣) .
[٥] سورة ص (٢٩) .
[٦] سورة طه (٥٤) .
[٧] سورة طه (١٢٨) .

٨ – وقوله تعالى ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [١] .

٩ – وقولـــــه تعالى في أهل لوط ﴿ **إنا مُنزِلون على أهل هذه القــرية رجــزاً من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون** ﴾ [٢] .

١٠ – وقولـــــه تعالى ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثــنى وفُــرادَى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ [٣] .

١١ – وقوله ﷻ ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبــير ومنافعُ للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ [٤] .

١٢ – وقولـــــه تعــالى ﴿ **وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾ [٥] .

---

[١] سورة النحل (١٢) .
[٢] سورة العنكبوت (٣٤ ، ٣٥) .
[٣] سورة سبأ (٤٦) .
[٤] سورة البقرة (٢١٩) .
[٥] سورة الأنعام (٩٨) .

دلالات التأصيل :

إذا ما تأملنا هذه الآيات نجد ما يلي :

{ ١ } أن الله تعـــالى نصب الأدلة في القرآن الكريم من الكون والـــنفس لـــيعقلها الإنسان ، وللتعقل مدلوله إنه يعني تقليب الأدلة من ســـائر وجوهها ، والتفكر فيها ، وتدبر معانيها ، والانتهاء بها عما لا ينبغـــي أن يتصف به العقل من فساد في التصور ، والاعتبار بما فيها من عبر لتدفع إلى الإيمان .

إنهـــا إذن عملية عقلية عميقة وواسعة لا تقف عند حد معين ، ولا تنتهـــي عـــند مظهر بذاته ، فالأدلة ينبغي ، بل يجب ألا تمر على العقـــل كالبرق الخاطف ، أو بما نطلق عليه " التمرير " دون تأمل أو تفحص أو تدبر أو نظر .

فالـــنظرة العَجْلـــى لا تفيد ولا تغني ولا تسمن من جوع ، فهي ليست محل تدبر أو تأمل ، كما أنها مظنة تفويت الحكمة على العقل .

{ ٢ } مـــن ثـــم نجد هذه الآيات الكريمة لا تتحدث عن التعقل فقـــط وإنمـــا نجدها تتسع لتشمل مترادفات كثيرة هي في النهاية ثمرة جهـــد عقلـــي ، وهذا مدلول قول الله تعالى ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .

وقولـــه تعالى ﴿ **لقد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾ .

وقولـــه تعالى ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ [١] ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ [٢] .

{ ٣ } الآيـــات تخاطـــب العقول السليمة : توجهت الآيات إلى العقـــول الســـليمة الفاحصة المتأملة العاملة المقدرة لملكاتها وطاقاتها الفاقهـــة ببواطن الأمور ، الباصرة بعواقبها ، المنتفعة بالتفكير والتعقل وعابـــت العقـــول التي أهملت تلك الطاقات والقدرات ، وعمت وسائل إدراكهـــا وأعاقـــتها عن التأمل والنظر والانتفاع بأوامر الوحي الإلهي وتوجيهاته ، ولو أنها فعلت لأثمرت ثمرات ناضجة ، ولكنها تقاعست عـــن ذلـــك أو تجاهلـــته أو استكبرت على تفهمه ، وأنكرت قبول ما لا يملـــيه الهـــوى ، ولفتـــت الآيـــات الكريمة أنظارهم إلى ضرورة الـــنهوض والـــيقظة من هذا السبات ، والإفاقة من تلك الغفلة .. ولكن قوماً لا يفقهون !!!

{ ٤ } فقه الدلالات في مقدور العقل :

بينت الآيات الكريمة أن فقه دلالات الأدلة وتأملها وتدبرها أمر ممكـــن عقلاً ، لذا خاطبت العقل بذلك ، ولو لم يكن ممكناً ما كلفته به لأن الله تعالى لا يكلف الإنسان بما لا يطيق .

---

[١] سورة محمد (٢٤) ، وسورة النساء (٨٢) .

[٢] سورة يونس (٦٧) ، وسورة الروم (٢٣) .

وطالمـــا أنـــه تعالى أمر العقل بفهمها ، إذن فهي في مستوى الإدراك ، وهي دلالات معقولة .

وطالمـــا أنه تعالى أمر العقل بفهما ومعرفة وجوهها واستنباط شـــارات الدلالـــة والأحكام منها واستخلاص النتائج ، والوقوف على العِـــبر والعظات التي تدل عليها ، إذن فهي دلالات معقولة ، أي أنها في مستوى الإدراك .

الذين يعطلون وسائل الإدراك :

تشير الآيات الكريمة التالية إلى خطورة تعطيل وسائل الإدراك عـــن ممارســـة دورهـــا الإدراكي ، لما له من آثار سيئة على مسيرة الاعـــتقاد والسلوك ، وتنعي على أولئك الذين عطلوا وسائل إدراكهم ، وتنزّلهم بسبب ذلك إلى درجة البهيمية .

١ – قولـــه تعالى ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلـــون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور** ﴾ [١] .

٢ – ومدلول قوله تعالى ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذيـــن لا يعقلـــون . ولـــو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾ [٢] .

---

[١] سورة الحج (٤٦) .

[٢] سورة الأنفال (٢٢ ، ٢٣) .

٣ – ومدلـــول قولـــه تعالى ﴿ **أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون** ﴾ [١] .

٤ – ومدلول قولـــه تعالى ﴿ **فـــإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصـــم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون** ﴾ [٢] .

فهـــؤلاء وأولـــئك لم يعملوا عقولهم في فهم قضايا الدين التي نصـــبت من أجلها الأدلة ، لأنهم عطلوا وسائل إدراكهم عن فهم الحق الظاهر والواضح وأبوا إلا الإنكار والمعارضة !!

لعلـــه قد اتضح مما سبق طبيعة الأدلة من حيث كونها معقولة تتفق مع العقل ، وتنسجم مع مقدماته ومبادئه ، كقاعدة من قواعد منهج الدعـــوة الاستدلالي في القرآن الكريم ، ولا يخفى ما لهذه القاعدة من أثر بالغ في قناعة الإنسان بالدين وإذعانه له واعتقاده به .

---

[١] سورة يونس (٤٢) .

[٢] سورة الروم (٥٢) .

المبحث الخامس

التأثير البالـغ

لا مــرية أن التأثير البالغ أحد معالم طبيعة الأدلة الدعوية في القــرآن الكــريم ، وهــذا التأثير لا يقتصر على العقل فقط باعتباره مخاطـباً بفهـم الأدلــة ، ومعــرفة طبيعتها ومقتضياتها ، وصياغة المقدمــات واســتخلاص النتائج ، وإنما يمتد ليتعمق في جنبات النفس الإنســانية ، ويســبر أغوارها ، ويكشف غموضها ، ويبرز حقيقتها ، ويوضح إيجابياتها ، ويومئ إلى سلبياتها ، فالقلب يخشع لها ، والنفس تهفــو إلــيها ، والآذان تصغي في خجل ، وتخضع الجوارح في أنين لجلالهــا وهيمنــتها ، ويجد العقل فيها ما يشبعه ويغنيه ، ويسعده ولا يشــقيه ، وإذ تخاطــبه لا تعيــيه ، وتقدر طاقاته ، ومن الانحرافات تحمــيه ، وتــنأى به عن الشطط وباليقين تغذيه ، وإلى الحق ترشده ، ومن متاهات الباطل تنجيه .

وكــيف لا وجــلال الحق يظهر من ثناياها ، والنور يتلألأ في طواياهــا ، إنها كلام الله تعالى الذي يخضع له الكون ويدين ، وتخشع له الجوارح وتلين ، وتخر له الجبابرة ساجدين .

تأصيل التأثير البالغ للأدلة

والقــرآن الكريم مترع بالأدلة التي توضح تأثير الأدلة القرآنية على الكون والإنسان ومنها ما يلي :

١ – قــول الله تعالى ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشــعاً متصــدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ (١) .

٢ – وقولــه تعالى ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهــم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذيــن يقــيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ (٢) .

٣ – وقوله تعالى ﴿ **إن وليِّيَ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين** ﴾ (٣) .

٤ – وقوله ﷻ ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفــيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله بعدما جاءنا من الحــق ونطمع أن**

---

(١) سورة الحشر (٢١) .
(٢) سورة الأنفال (٢ : ٤) .
(٣) سورة الأعراف (١٩٦) .

يدخلـــنا ربنا مع القوم الصالحين . فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ [١] .

٥ – وقولـــه تعالى ﴿ **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكـــرة لمـــن يخشى . تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمـــن على العرش استوى . له ما في السموات وما في الأرض ومـــا بيـــنهما ومـــا تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾** [٢] .

٦ – وقولـــه تعالى ﴿ **قل هو من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدِّي إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾** [٣] .

٧ – وقولـــــه تعالى ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾** [٤] .

٨ – وقولـــه تعالى ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾** [٥] .

---

[١] سورة المائدة (٨٣ : ٨٥) .
[٢] سورة طه (١ : ٨) .
[٣] يونس (٣٥) .
[٤] يونس (١٠٠) .
[٥] سورة هود (٥) .

٩ – وقولـــه تعـالى ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً فسـلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب . أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم مـن ذكـر الله أولئك في ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهـم إلـى ذكر الله ذلك هُدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ (١) .

١٠ – وقولـه تعالى ﴿ **قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار** ﴾ (٢) .

١١ – وقوله تعالى ﴿ **إنه لقول فصل . وما هو بالهزل** ﴾ (٣)

وهـذا مدلـول قوله تعالى " إنه لقول فصل وما هو بالهزل " ، وقوله تعالى " أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يَهدِّي إلا أن يُهدَى"

---

(١) سورة الزمر (٢٤) .
(٢) سورة الرعد (١٦) .
(٣) سورة الطارق (١٣ ، ١٤) .

وقوله تعالى " قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ... " وغير ذلك من الدلالات القرآنية الكريمة المذكورة وغير المذكورة .

دلالات تمتع العقل وتؤنس القلب

دلالات التأصيل

لا يخفـــى على من يتلو هذه الآيات إدراك شارات التأثير البالغ علـــى النفس وعلى العقل .. فالعقل يجد فيها طلبته من متعة الإقناع ، وصدق الدلالة ، وقوة البرهان ، وجزالة اللفظ ، وروعة البيان ، ودقة التأمل ، وحسن الفكرة ، والحجج القاطعة لجدل العقول ، وقطع النزاع وفصـــل القـــول ، وحسم أوجه الخلاف في المعقولات ، إنها دلالات تتأبى على القياس ، ولا تستطيع أن تأتي بها العقول والحواس .

والقلـــب يستشعر تلك المعاني المقذوفة من الغيب المطلق التي جـــاءت لتســـتحوذ عليه ، وتملك سويداءه ، لا يجد أمامها مناصاً من الخشوع ، ولا مفراً من الإذعان والخضوع .

إنهـــا تســـتثير كوامن مشاعره .. تحرك حالة جموده .. تهزه لتنفض عنه ران ما كسب .. تملأه بنور اليقين ، وبرد الإيمان .. تكره إليه الكفر والفسوق والعصيان .

إنهـــا دلالات تليـــن لها القلوب وتقشعر منها الجلود ، لكن أي قلوب وأي جلود .. إنها قلوب الذين يخشون ربهم بالغيب ، وجلودهم

يستشـــعرون هيمنته فيخضعـــون له ، ويركنون إليه .. يستنصرون به علـــى أنفسهم الأمارة بالسوء ، ونزعاتهم التي تدفعهم إلى المنكرات ، وأهوائهـــم التـــي تدفعهـــم إلى ترك الخيرات .. يثقون بهذا النصر ، ويعـــتزون بـــه ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ (١) .

وهذا مدلول قوله تعالى " تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم بالغيب ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " وقوله ﷻ " ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق " وقوله تعالى " وما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى " .

ولعلـــك تلحـــظ هذا التأثير البالغ في النفوس في شهادة أعداء القرآن أنفسهم الذين حاولوا أن يصفوه تارة بالسحر ، وتارة بالكهانة ، فها هو المغيرة بن شعبة لا يتمالك نفسه أمام تلك المشاعر النفسية التي تهـــزه مـــن داخله حينما سمع القرآن الكريم ، وقد عبر عن ذلك حين ســـألته قـــريش عنه فقال : (ماذا أقول ؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشـــعار مني ، ولا أعلم برجزه أو قصيده مني ولا بأشعار الجن . والله مـــا يشـــبه الـــذي يقول شئ من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة ،وإنه لمثمـــر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه يعلوا

---

(١) سورة آل عمران (١٦٠) .

ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته) [١] .

وتستطيع أن تقف على العديد من النماذج للتأثير النفسي للقرآن الكريم في كتب السنة والسير والتراجم [٢] .

إنهـــا إذن دلالات تراعـــي مـــا فـــي النفس الإنسانية من قوى وطاقات وقدرات وإمكانات .

ذلك أن (في النفس الإنسانية قوتان : قوة تفكير ، وقوة وجدان وحاجـــة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، فأما إحداهما فتنقِّب عن الحـــق لمعرفته وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بمـــا فـــي الأشياء من لذة وألم ، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتيـــن ، ويطـــير إلـــى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية) [٣] .

إنها دلالات كلام الله تعالى (فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢ / ١٩٨) دار النصر للطباعة بالمدينة المنورة ١٩٦٩م ، والسيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد (١ / ٤٩٩) دار الرائد العربي ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق : أحمد صقر (ص ٥٣) وما بعدها ، دار المعارف المصرية ١٩٧٧م .

(٢) منها على سبيل المثال : الطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ٢٦٧) بيروت ١٩٥٨م ، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري (٧ / ١٧٦) مطبعة الحلبي ١٩٥٩م .

(٣) النبأ العظيم : د / محمد عبد الله دراز (ص ١٣ ، ١٦) دار الثقافة ، الدوحة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، الرسالة اللدنية من العقود واللآلي للإمام الغزالي (ص ٧) المطبعة المحمودية التجارية بدون تاريخ .

وهـــو القـــادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحـــق بالجمـــال معاً يلتقيان ولا يبغيان ... ألا ترى القرآن الكريم في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟

أو لا تـــراه في مَعْمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشـــويق وترقيق وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها) [١] .

هـــذا التأثير شهد به أعداء الحق ومنكرو الرسالة والمعترضين على الوحي الإلهي .

لعله قد اتضح من خلال ما سبق طبيعة الأدلة الدعوية في منهج الدعـــوة الاستدلالي في القرآن الكريم من حيث قوة تأثيرها على العقل والقلب معاً .

---

[١] النبأ العظيم (ص ١٣ ، ١٦) .

المبحث السادس

القطــع والإلــزام

القطــع والإلزام أحد أبرز طبائع الأدلة الدعوية لمنهج الدعوة الاســتدلالي فــي القــرآن الكريم ، أما قطعيتها فقد جاءت من بيانها وتســاوقها مــع الواقع ، وانسجامها مع العقل ، وانبثاقها عن الحكمة الإلهية .

وأمــا إلــزامها للخصــوم المنكرين والمعارضين والمجادلين والمشــككين ، فلأنهــم لــم يستطيعوا معارضتها، والإتيان بمثلها في وضــوح معانيها ، وقوة حجتها وسلامة براهينها ، ونصوع دلالاتها ، وصدق بيناتها ، ودقة مفرداتها ، وإحكام عباراتها ، فإن لم يؤمنوا بها فقد ألزمتهم بضرورة الإيمان بصدق قضاياه ، إلا أن يأتوا بمعارض ، وقــد تعــذر هذا عليهم من قبل ، ومن هنا تسقط أباطيلهم ، وتدحض حججهم ، وتتهافت آرؤهم وتصوراتهم .

ومن ثم لم يجد المنصفين منهم إذا ما صفت قرائحهم ، واعتدلت فطــرهم ، واستقامت طويتهم ، وحسنت نياتهم ، لم يجدوا مناصاً من التسليم لما ألزمتهم به ، والإذعان لما أظهرته في عقولهم من بينات ، والانصياع لما تضمنته من حقائق وآيات .

تأصيل دلالة القطع والإلزام :

ولعـــل قطعية الأدلة الدعوية في القرآن الكريم وإلزامها واضح مـــن خـــلال ما سبق سوقه من آياته تبين طبيعتها من حيث ربانيتها ، وبـــيانها ، وانسجامها مع العقل ، واتفاقها مع الواقع ، هذا فيما يتعلق بقواطـــع دلالة النصوص القرآنية على أن نصوصاً أخرى في القرآن الكـــريم تحمل دلالات ظنية (احتمالية) تحتمل أكثر من معنى ، وهذا لا يقـــدح في قطعية دلالات القرآن الكريم من حيث الورود والتلقي ، ومن حيث ما ورد منها قطعي الدلالة ، أو ظنيّها .

وقطعـــي الدلالـــة وظنيها جاءا رحمة بالعقل ، ليقطع بما زوده الوحـــي الإلهي به من معان لا مجال له في العمل بها ، وليس له إلا التسليم ليوفر له الجهد والوقت ويدفعه إلى أن ينشط في عمله ، وليفتح للعقـــل بـــاب الاجتهاد في فهم نصوص القرآن الكريم فيما أورده من دلالات ظنية مراعاة لما رُكِّب فيه من طاقات وقدرات ذهنية ، وتطلع إلـــى المعـــرفة والـــتأمل والبحـــث ، إضافة إلى إثراء الفكر بالتنوع والتعددية توسعة على الأمة ورفعاً للحرج والمشقة .

ومـــثال الدلالات الظنية قول الله تعالى ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ [١] فلفظ (القُرْء) في اللغة العربية مشترك

---

[١] سورة البقرة (٢٢٨) .

بين معنيين ، فهو يطلق لغة على الطهر ، ويطلق لغة على الحيض ، فيحتمل أن يراد به ثلاثة أطهار ، ويحتمل أن يراد ثلاثة حيضات)[١]

ومـــن ذلك أيضاً لفظ (النِّد : للمثل والضد . و" الدين " الطاعة والجزاء . و" عسعس " إقبال الليل وإدباره) [٢] .

وكمـــا لا تقدح الدلالات الظنية في قطعي الدلالة ، فلا تقدح في إلزام الدلالة ، إذ لا يعني احتمال ورود أكثر من معنى للنص القرآني الكـــريم في ألفاظه العامة أو المطلقة أو المشتركة ترك كل المعاني ، وعـــدم العمل بها ، وإسقاط حجيتها ، فهذا عبث بآي القرآن الكريم ، وقلـــة درايـــة ، وخطأ منهج ، فالآية ملزمة على أي من المعاني التي تحتملها .

وهذا كما قلنا من باب التوسعة ورفع الحرج والمشقة عن الأمة فمـــن أخـــذ بمعنى الطهر في دلالة (القرء) فهو ملزم له ، ومن أخذ بمعنى الحيض في دلالته فهو ملزم له ، وهذا تأكيد لحجية الآية الكريمة وبـــيان لمـــدى روعة النص القرآني ومرونته ومراعاته لطبيعة اللغة العربية ، وطبيعة العقل البشري .

---

(١) علم أصول الفقه : الأستاذ عبد الوهاب خلاف (ص ٣٥) دار القلم ، ط (٢) ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

(٢) التحبير في علم التفسير للإمام السيوطي . تحقيق : زهير عثمان نور ص(٣٨٧) مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية ، ط (١) ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

(ومـــن شأن هذا أن تنمو الحياة العلمية باستمرار ، وأن تكون فـــي خدمة الحياة الإنسانية ، ومواكبة لها في تطورها وتجدد أحداثها ، فـــلا يكـــون العلم بمعزل عن الحياة ، ولا يكون الدين غريباً في دنيا الناس) [١] .

ومـــن ثم تتأكد حجية آي القرآن الكريم (فكتاب الله تعالى دليل على كلامه ، وكلامه صدق لا محالة ، فيجب الإيمان والعمل به ، قال الله تعالى ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه** ﴾ [٢]) [٣] .

تعقيب :

يتضـــح من خلال ما سبق بيانه أن قاعدة " بيان طبيعة الأدلة " واحدة من أبرز قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ، لما لهـــا مـــن أهمية بالغة في الإقناع والاقتناع .. والتأثير والتأثر [٤] ، والخضـــوع والإذعان ، إذ لا يجد المدعو بعد بيان طبيعتها إلا التسليم بها ، واعتناق قضاياها ، وترسيخ مفاهيمها ، والإيمان بقيمها .

---

(١) منهج البحث في العلوم الإسلامية : د / محمد الدسوقي (ص ١٥٧) مرجع سابق .

(٢) سورة الأنعام (١٥٥) .

(٣) ميزان الأصول في نتاج العقول (المختصر) للإمام السمرقندي ، تحقيق : محمد زكي عبد البر (ص ٧٩) مرجع سابق .

(٤) نقصد بالتأثر : تأثر المخاطبين بها لا أنها تأثرت بمؤثرات مغايرة أو خضعت لمفاهيم بشرية .. حاشا لله .

الفصل الثاني

قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم

تمهيد :

لا مـــرية أن القـــرآن الكـــريم غني بالقواعد المنهجية اللازمة لضـــبط العمـــل الدعوي ، وترشيد ممارسات الدعاة العملية في سائر ميادين الدعوة .

ومـــن البديهـــي أن نجـــاح أي عمل مرهون بنجاح منهجيته ، ونجـــاح منهجيته مرهون كذلك بقوة التصور والإدراك اللازمين لفقه الواقـــع فقهـــاً ينسجم مع طبيعة العمل الدعوي ، وهو فقه يمتد ليشمل عناصر متعددة تلزم لصياغة القواعد المنهجية الراشدة ، ومنها :

١ – فقه الأحداث والوقائع والمؤثرات ، وما يجب أن يقدَّم وما لا يجـــب ، ومـــا ينبغي فعله وما لا ينبغي ، وفقه الأعراف والعادات والتقالـــيد ، ومدى انسجام الإنسان معها وانفعاله بها ، ومدى استعداده للتخلص منها والاستمساك بها .

٢ – فقـــه طبيعة الإنسان " كمدعو" [١] ، ومن ذلك فقه طبيعة التكويـــن ، ومعـــرفة مواطـــن القوة فيه والضعف ، والدراية بطبيعة التأثـــير والـــتأثر ، وعوامل القبول ، ودوافع الرفض ، وتفهُّم نوازع الانتقاد، والثورة ، واستبصار جوانب الخير فيه والشر، ومعرفة روافد الطمأنينة الذاتية وعوامل اليأس والقنوط ، ومراعاة تفـــاوت الإدراك

---

[١] وفقـه طبيعة الإنسـان كمدعو جزء من فقـه طبيعـة الواقـع ، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، كما لا يمكن فهم الواقع بمعزل عن الإنسان ولا فهم الإنسان بمعزل عن الواقع .

ومعـــرفة مـــدى جمـــوده ومرونته ، وتردده وثباته ، وإمكانية إقناعه ودرجـــة اقتـــناعه ، وضرورة معرفة توجساته وآماله ، وقوة إقدامه وإحجامه .

وهـــذا كله لازم لمعرفة صياغة الدليل ومعرفة مدى فعاليته ، ومعرفة كيفية اقتناع المدعو به وطرق إقناعه .

إذ أن مـــلاك الأمر في عملية " الإقناع والاقتناع " هو " إنشاء الدلـــيل " وإن شئت فقل " بناء الأدلة " ، وطالما كان الدليل قوياً كانت عملـــية الاستدلال على قضايا المدعو إليه قوية ، وضعفها مرهون – كما لا يخفى – بضعفه .

بـــيْد أن القواعد المنهجية الاستدلالية التي تستنبطها من القرآن الكـــريم تستلهم قوتها من قوته ، وشموليتها من شموليته ، وسبحان الله تعـــالى القائل ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [١] .

والحكـــيم هـــو الذي يضع الشئ في موضعه ، ويقدره قدره ، ويحكم تدبيره ، ويعرف ما يترتب عليه من آثار [٢] .

---

[١] سورة فصلت (٤٢) .

[٢] مفاتيح الغيب (٢٧ / ١١٣) ، وتفسير محاسن التأويل للقاسمي ، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي (٤ / ٢٨٠) دار الفكر ، بيروت ، ط (٢) ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، والنكت والعيون للماوردي ، مراجعة وتعليق : السيد عبد المقصود عبد الرحيم (٥ / ١٨٦) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنانط (١) ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

والله تعالى يقول ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ [١] .

لـــذا جـــاءت قواعد المنهج الدعوي في القرآن الكريم لتراعي الثوابـــت والمتغـــيرات فـــي ذات الإنســـان ، وفي الكون من حوله ، وتراعي قدراته ، وطاقاته النفسية ، وحاجياته الواقعية .

وســـوف نبيـــن فيما يلي – بمشيئة الله تعالى– ما وفقنا إليه من استنباط لهذه القواعد المنهجية الاستدلالية .

---

[١] سورة الملك (١٤) .

المبحث الأول

صدارة النص القرآني والحديث الشريف

مـــن روائـــع قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم " **صـــدارة الـــنص القرآني المبارك والحديث الشريف** " على أن هذه القـــاعدة تأتـــي علي رأس قواعد التأسيس والبناء لمنهج دعوي راشد ومنضـــبط ، ذلك أن كل القواعد تنبثق من معين القرآن الكريم والسنة الشريفة فهي تمتد لتضرب بجذورها في معين الوحي الإلهي، وتقتطف ثمارها من حكمة النبوة ، وذلك لما يتمتعان به من الكمال المطلق .

على أننا نقصر دراستنا هنا على القرآن الكريم باعتباره موضوع البحث ، ولأننا لا نستطيع الجمع هنا بين قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم والسنة الشريفة .

لكنـــنا نومئ هنا إلى صدارة النص القرآني والحديث الشريف باعتبار إرساء القرآن الكريم لهذه القاعدة في منهج الاستدلال .

صدارة الكامل ضرورة عقلية :

القصور لازمة من لوازم التفكير العقلي ، لأن العقل يعتمد في مداركـــه على وسائل محدودة الإدراك ، ضيقة الأفق ، ومعرفة العقل سطحية النظرة ، وإن تعمق العقل في بعض الأحيان في مسائل التفكير والـــتأمل ، وقضـــايا النظر والاستدلال ، فإنه ما زال العقل يعجز عن إدراك ذاته، وإماطة اللثام عن جوانب مجهولة في طبيعة إدراكـــــه ،

من ثـم يعجز عن إدراك حقيقة كثير من الأشياء ، وخاصة ما غابت عنه ، أو استترت ، أو تأبت على الظهور له ، ومع تقدم العمل العقلي وتفوقه إذا ما قورن بسائر المخلوقات ، ومع نهوضه ورقيه ، ومع اكتشافه لمساحات من المجهول في الكون ، إلا أنه يقف عاجزاً عن إدراك جوانب الغيب أو " اللامنظور " .

ومع قدرته على القياس والترجيح ، والتمييز بين الحسن والقبيح ، والحق والباطل ، والغث والسمين ، وبناء المقدمات وترتيب النتائج ، وإدراك العلل ، وإزالة الاشتباه والوصول إلى معارف ظاهرة بينة إلا أن شيئاً من ذلك كله لم يكن منحة ذاتية ، وإنما كان منحاً ووهباً من الخالق سبحانه وتعالى للعقل ليدرك حجم إدراكه ، وليدرك قيمة رسالته في الحياة ، ويدرك دلالات الخلق على عبودية الخالق ، وليكون مناطاً للتكليف ، ووعاءاً للرسالة .

والعقل يعترف بالعجز عن إدراك المزيد فيما يؤمن به وما يراه ويحسه إلا بإعانة وتوفيق من جهة أخرى ، أو بالأحرى من مصدر تتصف معارفه بالكمال والدقة ، والعمق والإحاطة ، والشمول والانفتاح على جوانب المرئي والمشاهد ، والمستتر والغائب ، ليزود العقل بوسائل الإدراك ، ويكشف له حقيقة المدركات ، لتتفتق المعارف من دائرة المجهول ، فتضيق مساحة المجهول أمام حكمة الوحي .

وهذه بديهة عقلية ونتيجة حتمية لا ينكرها إلا معاند ومكابـــر ، ذلـــك أن مـــن بديهيات العقل أن القاصر يحتاج إلى كامل ، والعاجز يفـــتقر إلـــى قوي ، والضعيف يفتقر إلى قادر ، والجاهل إلى معلـــم ومعـــارف العقـــل في مجملها تتصف بالعجز والضعف ، وتفتقر إلى مصـــدر معرفي يحقق لها ما لم تستطع تحقيقه ، فضلاً عن أن وجود العقل مفتقر إلى موجد .

من ثم كانت حكمة الله تعالى في إرسال الرسل ، وإنزال الوحي الإلهي بالرسالات لهداية العقل إلى الحق ، والتفريق بينه وبين الباطل وبيان الغواية من الرشاد ، والهداية من الضلال ، والصدق من الكذب والحسن من القبيح ، والصالح من الفاسد .

إنه يبين للعقل جملاً من المتناقضات [١] ، ويوضح له شارات كل مناقض لنقيضه ، ومقابل لمقابله ليساعده على الفصل في الحكم ، وقطع سبل الالتباس ، وسد منافذ التردد والحيرة والشك والارتياب .

فـــالعقل يقطع بالمعطيات القطعية التي يرد بها النص القرآني ، وينسجم معها ، ويتبارى في الدفاع عن قناعاتها ، والترويج لقطعياتها.

هـــذا فيما يتعلق بدلالاته القطعية ، أما ما يتعلق بدلالاته الظنية من المعاني فهو إعطاء العقل فسحة لتدبر آياته ومعانيه ، وضبـــط

---

[١] وسوف نفرد لهذه القضية مبحثاً خاصاً في ثنايا هذا البحث ، والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

اجتهاداته ومداركه .

ذلك أن (دلالات آيات القرآن الكريم إما قطعية وإما ظنية .. فالنص القطعي الدلالة هو ما دل على معنى متعين فهمه منه ولا يحتمل تأويلاً ولا مجال لفهم معنى غيره منه مثل ﴿ **ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد** ﴾ (١) .

وأما النص الظني الدلالة فهو ما دل على معنى ، ولكن يحتمل أن يؤول ويصرف عن هذا المعنى ويراد منه غيره ، مثل قوله ﷻ ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ (٢) ، فيحتمل أن يراد بالقرء ثلاث أطهار أو ثلاث حيضات ، على أن دلالته من جهة مصدريته وطريق نقله إلينا فهي قطعية) (٣) .

وغاية ما نريده هو تقرير هذه القاعدة (لا يوجد معقولٌ صريح يخالف المنقول الصحيح) (٤) .

من ثم كان لابد للعقل أن يسلِّم بحاكمية الوحي الإلهي وصدارته .

---

(١) سورة النساء جزء من الآية (١٢) .

(٢) سورة البقرة جزء من الآية (٢٢٨) .

(٣) علم أصول الفقه : أ / عبد الوهاب خلاف (ص ٣٤ ، ٣٥) مرجع سابق بتصرف يسير.

(٤) شمول النصوص لأحكام أفعال العباد لابن تيمية ، تحقيق : صالح المهندس (ص ١٢) مطبوعات وزارة الأوقاف بقطر ، ط (١) ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

ولعلـــنا ندرك من هذا قيمة صدارة النص الإلهي بلفظه ومعناه (القـــرآن الكـــريم) أو بمعـــناه دون لفظه [١] (السنة الشريفة) لما يـــتحقق بـــه من الكمال والعصمة ، وما تتحقق به معانيه ودلالته من الدقة والإحاطة والثبوت والقطع .

تأصيل القاعدة :

عـــندما نقرأ آي القرآن الكريم ، ونتدبر معانيها ، ونتفهم أوجه فصـــاحتها وبلاغتها ، وسلامة ذوقها ، ودقة أساليبها ، نجدها تتحدث عن حتمية صدارة النص القرآني، وكذا حتمية صدارة الحديث الشريف لكن في مرتبة تالية لنص القرآن الكريم .

ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى :

١ - ﴿ **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ﴾ [٢]

٢ - ﴿ **ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم** ﴾ [٣] .

٣ - ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ [٤] .

٤ - ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ [٥] .

---

[١] علم أصول الفقه . الأستاذ عبد الوهاب خلاف (ص ٢٣) مرجع سابق .

[٢] سورة الأنعام (٥٧) .

[٣] سورة الممتحنة (١٠) .

[٤] سورة المائدة (٥٠) .

[٥] سورة المائدة (٤٨) .

٥ - ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ (١) .

٦ - ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (٢)

٧ - ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ (٣)

٨ - ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٤)

٩ - ﴿ وأنـزل الله علـيك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (٥) .

١٠ - ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ (٦) .

١١ - ﴿ هـو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ (٧) .

---

(١) سورة المائدة (٤٩) .
(٢) سورة المائدة (٤٤) .
(٣) سورة المائدة (٤٥) .
(٤) سورة المائدة (٤٧) .
(٥) سورة النساء (١١٣) .
(٦) سورة يونس (١٠٩) .
(٧) سورة الجمعة (٢) .

١٢ - ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يـــتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [١] .

١٣ - ﴿ قـــل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ [٢] .

١٤ - ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ [٣] .

١٥ - ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [٤] .

١٦ - ﴿ أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ [٥]

١٧ - ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا ﴾ [٦] .

١٨ - ﴿ وأطـــيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا آلبلاغ المبين ﴾ [٧] .

---

[١] سورة آل عمران (١٦٤) .
[٢] سورة آل عمران (٣٢) .
[٣] سورة آل عمران (١٣٢) .
[٤] سورة النساء (٨٠) .
[٥] سورة الأنفال (٢٠) .
[٦] سورة الأنفال (٤٦) .
[٧] سورة المائدة (٩٢) .

١٩ - ﴿ تـبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ (١) .

٢٠ - ﴿ يـا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنـتم تخفـون مـن الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكـتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

دلالات التأصيل في هذه الآيات :

لعلـنا لو تأملنا هذه الآيات الكريمة نجد من شارات الدلالة ما يلي :

أولاً : القرآن الكريم كتاب نور وهداية :

بمعـنى أنه جاء هادياً للإنسان .. روحه وعقله .. نفسه وجسده دنـياه وآخرته ، وهو مخرج للناس من الظلمات بمفاهيمها المختلفة ، ومقاييسـها المـتعددة ، وصـورها الضاربة في الضلال والغواية ، وأسبابها الناشئة عن إعاقة العقل ، وقلة التأمل والتدبر ، وندرة التفكر والـتعقل ، مما دفع الناس إلى ترك الحق إلى الباطل ، وعدم القناعة بمعطياته، واستبدال قضايا الوحي بفلسفات بشرية قاصـرة ، تستمـد

---

(١) سورة الفرقان (١) .

(٢) سورة المائدة (١٦) .

جذورهـــا تارة من الوثنيات ، وثانية من الماديات والطبيعيات ، وثالثة من الإلحاد ، فطمست بذلك معالم الحق ، وأضلت كثيراً من الخلق .

إنه إذن جاء لتزكية البشر بتعليمهم تعاليم الوحي الإلهي الهادي إلى الحق ، المنجي من الضلال والانحراف .. الضابط للتفكير والحس والوعي .

ثانياً : القرآن الكريم فرقان بين الحق والباطل :

لـــذا ســـماه الوحـــي الإلهي فرقاناً ، لأنه يفرق بين متناقضات الاعـــتقاد ، ومتقابلات التفكير بصورها الإيجابية والسلبية ، فهو الحد الفاصـــل بين الحق والباطل ، والنور والظلمة [١] ، مما يجعل القرآن الكريم أهلاً للإنذار والبشارة والوعد والوعيد .

وقد وصفه الله تعالى بقوله ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [٢] .

ثالثاً : ضرورة الاحتكام إلى القرآن الكريم :

تأسيساً على قيم كمال القرآن الكريم وإحاطته وعلمه وشموله ، وعلـــى كونه فرقان بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، وعلى أنه لا يأتيه باطل ، ولا يحوم حوله شك ، وطالما أنه يمد الإنسان بمعارف

---

[١] راجع : مقدمة التفسير لابن تيمية (١٦ / ٧) وما بعدها ، دار الحرمين ، بدون تاريخ .
[٢] سورة فصلت (٤٠ ، ٤١) .

فـــي العقول مقدمة بدون نتيجة .. وكل سبب له مسبب ومفضي أيضاً إلى نتيجة .. والعقل يجد من هذا ما يقنعه ويأنس به ويؤمن له .

وقـــد أتـــى القـــرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي بهذه القاعدة على صور متعددة منها ما يلي :

[أ] ربط الأسباب بالمسببات :

فكـــل مسبَّب لابد له من سبب ، ولا ينكر هذا إلا غير عاقل ، لأن العقـــول قاضـــية به .. منتهية إليه .. والأمور تصير بأسبابها ، والكون قائم بأسبابه ، ولا عبرة بمن شذ عن هذا .

التأصيـــل :

قال الله تعالى ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم** ﴾ (٢) .

وقـــال تعالى ﴿ **واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة المائدة (٣٨) .
(٢) سورة البقرة (٢٢٥) .
(٣) سورة البقرة (٢٨١) .

وقـــال تعـــالى ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولـــيٌّ ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أُبسِلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ (١)

وقـــال تعالى ﴿ لـــيَجزيَ اللهُ كلَّ نفس بما كسبت إن الله سريع الحســـاب هـــذا بـــلاغ للناس ولِيُنذَروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكَّر أولوا الألباب ﴾ (٢) .

وقـــال تعـــالى ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقَهم بعض الذي عملوا لعلهم يَرجِعون ﴾ (٣) .

وقـــال تعـــالى ﴿ ومـــا أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ (٤) .

وقـــال تعـــالى ﴿ والذيـــن كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأنعام (٧٠) .
(٢) سورة إبراهيم (٥١ ، ٥٢) .
(٣) سورة الروم (٤١) .
(٤) سورة الشورى (٣٠) .
(٥) سورة يونس (٢٧) .

يقينـــية عـــن قضاياه الكبرى أو الصغرى ، وطالما أنه يختزل عنصر الزمـــن والمكـــان ، ويعجـــز القُوى والمدارك ، ولأنه يحارب الظلم والجَـــور والفساد والفسوق ، ويحارب الظلم الاجتماعي ، ويعمل على تحقيق السلم والأمن الاجتماعيين .

طالمـــا كان الأمر كذلك ، وتأسيساً على ما سبق ، فمن البديهي – فضـــلاً عـــن كونـــه حكماً شرعياً – أن يحتكم الإنسان إليه في كل شـــئون حـــياته ، لضـــبط مسيراته العقدية ومسيرته الذاتية ، وضبط عمليات الاستدلال التي يقوم بها تأييداً أو معارضة ، إثباتاً أو نفياً .

رابعاً : صدارة النص القرآني والحديث الشريف :

تأسيســـاً على ما سبق بيانه – أيضاً – وطالما أن القرآن الكريم يـــتحقق بهذه الخصائص من حيث كماله المصدري والذاتي ، ووجوب الاحـــتكام إليه ، فإنه يجب أن يتحقق بالصدارة ، وليس لكائن من كان أن يـــنال مـــن صدارته ورتبيته ، فهو مصدر الإسلام الأصيل ، وهو الذي أذن للسنة بأن تليه في الرتبة والصدارة ، وأوجب على المسلمين ضرورة العمل بهما والاحتكام إليهما في المنازعات ، وفض لخصومة والجدل .

فالاحـــتكام إلـــيهما يعصـــم الذهن من الخطأ ، ويقوي مدارك الإنســـان ، ويفـــتح عقلـــه علـــى آفاق أرحب من التفكير المنضبط ، والإدراك الواعي ، اللازمين لبناء استدلال راشد .

وعكس هذه القاعدة خطأ في المنهج وعكس للدليل ، ولا يخفي مـــا فـــي ذلـــك من خطورة على عملية الإدراك (فلا يجوز أن يجر القـــرآن جـــراً ، ليؤيد – رغم أنفه – مدرسة من مدارس الاعتقاد أو الفكـــر أو الفقه أو السلوك ، فإن هذا قلب للحقائق ، وتزييف للأمور ، وتأخير لما حقه أن يقدم ، وتقديم لما حقه أو يؤخر ، فقد أمسى الحاكم محكومـــاً ، والأصـــل فرعاً ، والمتبوع تابعاً ، وهذا من أكبر أسَباب الضلال ومنازع الزيغ، ومصادر الانحراف عن سواء الصراط)[١].

ولا يخفى ما لهذا من خطورة على منهجية الاستدلال .

---

[١] المنهج الأمثل في التفسير : د / يوسف القرضاوي ، بحث نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ٤١) العدد (٨٣) السنة (٢١) ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

المبحث الثاني

التعريفـات

ممـــا تميز به منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ، أنه راعـــى التعريف بما يُستدل عليه ، وكذلك ما يستدل به . ويقصد بما يستدل عليه " المدعو إليه " وهو الدين الإسلامي .

ويقصد بما يُستدل به الدليل الذي يستاق من الواقع تارة ، ومن الأخبار تارة أخرى ، وبالقياس [١] تارة ثالثة .

وتأتـــي أهمـــية " **التعريف** " في موطن الاستدلال بالقضية ذات الصلة من حيث أنه يُراعى ضرورة إماطة اللثام عن مضامين القضية لتعطـــي صـــورة واضحة المعالم عنها في خطوة أولى للتعرف على الشئ من حيث الماهية والكينونة .

وهـــذا مـــن لوازم عملية " الإقناع " و" الاقتناع " لأن الإنسان لا يقتـــنع إلا بما يعرف ، ولا يعرف معرفة حقيقية إلا ما فهم ، وليس كل ما فُهم يُقطع به إلا بيقين . وحيث أن الإقناع والاقتناع مفاعلة بين طرفين يريد أحدهما إقناع الآخر بشئ ما .

ومـــن المســـتحيل أن يتم شئ من ذلك بدون إدراك كامل ومعرفة تامة بطبيعة هذا الشئ لضمان إجراء هاتين العمليتين. وهذه قضية منطقية.

---

(١) ويقصد بالقياس هنا قياس المعنويات المجردة بالمحسوسات لتقريب المعاني وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ سورة الأعراف (٢٩) .

لــذا نجد القرآن الكريم يركز على التعريفات لما لها من أهمية بالغــة علــى هذا النحو ، وإلا فلن يكون هناك اقتناع من أحد بأي من قضايا الدين .

التعريف بالشئ لإقامة الحجة :

وتــرجع أهمية قاعدة " **التعريف** " إلى أنها بمثابة إقامة الحجة علــى الخلق بعد سوق البراهين الواضحة ، والحجج القاطعة لهم ، إذ لا عــذر لمعــتذر يجهل ، ولا حجة لمحتج بعد توضيح مهايا الأشياء وبــيان أحكامهــا ، لــذا كــان الــتعريف بالشئ حجة على المنكرين والمعارضين ، وإلزاماً للطائعين .

قــال الله تعــالى ﴿ **وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فــريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ (٢) .

﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة النمل (٩٣) .
(٢) سورة البقرة (١٤٦ ، ١٤٧) .
(٣) سورة البقرة (٨٩) .

وكـــان أولى بهم أن يؤمنوا به لأنهم يعرفونه ، لكن إنكاره بعد معرفته صار أقوى الحجج على إدانتهم واستحقاقهم لعنة الله .

وكـــون الله تعالى يرينا الآيات لنعرفها ، فليس لمجرد المعرفة بها ،وإنما لإقامة الحجة علينا إن خالفنا أمره تعالى ، وإلزامنا بالطاعة إن آمنا به تعالى وصدقناه سبحانه .

ويـــنكر القرآن على المنكرين إنكارهم للرسول ﷺ لأنهم تنكروا له بعد معرفتهم به ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون** ﴾ [١] .

من ثم يبقى فهم الشئ ومعرفته ضرورة تفرض نفسها وبإلحاح على عملية الاستدلال لضمان نجاحها .

نماذج التعريفات

أولاً : التعريف بالمعبود الحق :

كـــان مـــن الطبيعي وفقاً للسنن الإلهية في الكون أن يرسل الله تعالى رسولاً إلى البشر بدين يعرِّفهم بالإله المعبود بلغاتهم ، ويتعبدهم بجوانـــب عقديـــة وتشـــريعية وأخلاقـــية [٢] تســـتقيم بها رؤاهم ، وتصوراتهم لطبيعة عبادته ، وتصحيح عقيدتهم في الإله .

---

[١] سورة المؤمنون (٢٣) .

[٢] راجع في هذا بحث الإنسان والكون . د / عبد المجيد النجار . نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ٢١) ع (٧٧) س (٢٠) ربيع الأول ١٤١٦هـ / أغسطس ١٩٩٥م .

وقد بعث رسول الله محمد ﷺ في بيئة ، بل في ظروف عالمية فسدت فيها تصورات الناس عن الإله ، وانحرفت فيها عقيدتهم فيه حتى تشبعت بالوثنية في أحيان ، واختلطت صفات الإله بصفات البشر في أحيان أخرى ، فقد هبط فيها تصور الألوهية حتى أُنزل الإله فيها من علیائه إلى مكانة لا تليق ، بل رفع فيها البشر وأنزل منزلة الإله في تخبط ، واضمحلال فهْم ، وسوء اعتقاد ، كما كان الحال في النصرانية (١) .

وخلعت على الإله سبحانه أوصاف لا تليق به مثل البخل والأنانية ، والندم ، واللعب مع حواء ، ومذاكرة التلمود مع الحاخامات والنزول إلى الأرض ، والظهور للفساق والماجنين ، ومخاطبتهم عن طريق الرؤى ، ومجالسة الأنبياء والأكل معهم وكذا الاستراحة في مكان إقامتهم ، كما كان الحال في اليهودية (٢) .

إضافة إلى"**التعددية** " أو" **الإثنينية** "التي كانت سائدة في بعض الديانات القديمة ، والتي ظلت منتشرة حتى زمن البعثة الشريفة ، بل وما زالت بقاياها حتى الآن عند طائفة من البشر يدينون بالزرادشتية (٣) .

---

(١) راجع : الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام (ص ٢٦) نهضة مصر .

(٢) الكتاب المقدس العهد القديم سفر التكوين إصحاح ١٨ فقرة (١) وما بعدها وأناجيل العهد الجديد .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : د / حسن إبراهيم حسن ١/ ٦٩ وما بعدها ، مكتبة النهضة المصرية ، ط (٧) ١٩٦٤ م

إلـــى جانب الانحرافات العقدية في جانب الإلهيات في ديانات أخرى كالمزدكية والمانوية ، بالإضافة إلى الوثنية التي وجدت طريقها إلـــى البيئة العربية حتى صنع الإله من العجوى ليعبد ، ثم يؤكل وقت الجوع (١) .

فـــي ظل هذه التصورات العقدية الفاسدة والممارسات التعبدية المنحرفة كان لابد من تصحيح التصورات لاستقامة الاعتقاد ، وتقويم الاعوجاج .

مـــن ثم جاء القرآن الكريم ليركز على التعريف بالإله المعبود تعريفاً يتعلق بالذات وبالصفات لنفي التوهمات ، ولدفع هذه التصورات الفاسدة وبيان بطلانها .

[أ] التعريف بالذات الإلهية :

جاء تعريف القرآن الكريم بالذات الإلهية بأنها ذات غيبية مطلقة لا تقـــيد بقـــيود الزمان والمكان ، ولا تخضع لقياس ، فهي كل كامل يدرِك ولا يُدرَك .. يؤثِّر ولا يتأثر ، ويؤكد التعريف بالذات الإلهية أن قمة العبادة أن تعبد ذاتاً غيبية لا ترى .

فالله تعالى غيب مطلق ، لكن آثاره واضحة نشاهدها في خلقه ، نشاهدها في أسرار الكون الفسيح ، كما نلمسها في أســـــرار النفس

---

(١) وقد قضى الرسول ﷺ على كل المظاهر الوثنية في البيئة العربية عام الفتح بتحطيم الأصنام حول الكعبة . تاريخ الإسلام للإمام الذهبي (١ / ٤٨٠) دار الغد العربي ، ط (١) ١٩٩٦م .

الإنسانية وجوانبها التي يكتنفها الغموض ، وتحيط بها الأسرار من كل جانب .

قال الله تعالى ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١) .

(والتعبير بما يدل على اللطف لمناسبة ما لا يُدرك تأكيد للمعنى) (٢) .

فالله تعالى ذات لا تُدرَك ، لأنه كل كامل ، وأنَّى لناقص أن يُدرك كاملاً ؟!.. أنَّى لعاجز أن يدرك كلي القدرة ؟!.. أنَّى لمحدود الإدراك أن يدرك كامل الإدراك ؟!

من ثم قال رسول الله ﷺ : " تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في ذاته الله فإنكم لن تقدروا قدره " (٣) .

وقد استدل الإمام محمد عبده بهذا الحديث الشريف على الله تعالى (لا تدرك كنهه العقول ، ولا تحوم عليه الأوهام) (٤).

فالتفكير في ذاته ممتنع على العقل البشري ، ولذا كان البحث فيه يعد

---

(١) سورة الأنعام (١٠٢ ، ١٠٣) .

(٢) التحبير في علم التفسير للإمام السيوطي ، تحقيق : د / زهير عثمان (ص ٤٨٢) مرجع سابق .

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١ / ٣٧١) دار التراث بدون تاريخ ، وقال رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن ابن عمر مرفوعاً .

(٤) منهج محمد عبده في دراسة العقيدة : د / منى أبو زيد ، بحث نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ١٤٠) السنة (٢٩) العدد (٧٥ – ٧٦) رجب ١٤١٦هـ / فبراير ١٩٩٥م .

في نظره عبثاً ومهلكة ، لأنه سعى إلى ما لا يدرك .

يقـــول محمـــد عبده : " ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشـــرع ولا يحيله العقل .. ولكن لا يهتدي إليه النظر وحده ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصفاً بها اتباعاً لما قرره الشرع).

وشأن الإمام محمد عبده في هذا شأن ابن خلدون .

وكون ذات الله غيبية لا يبرر لنا عدم الاعتراف به ، ولا يُعيينا ذلـــك عـــن عبادته سبحانه ، فإن أدلة وجوده منصوبة في الكون من حولـــنا بـــل في ذواتنا ، وإن كان الله تعالى لا يحتاج إلى دليل لإثبات وجـــوده ، وإنمـــا تنصب الأدلة لنا نحن المخلوقين الضعفاء العاجزين محـــدودي الإدراك لمعـــرفة أن عبادتنا ليست لإله وهمي ، وإنما لإله متحقق بالوجود ، وأنها لن تضيع سُدى .

ألا يكفيـــنا أنه تعالى يرانا .. يخبرنا عما يدور بأنفسنا .. يدبر أمورنـــا .. يصير الكون ويسيره من أجلنا .. يكشف لنا أسرار قدراته وآيات عظمته .. ويحيطنا برعايته .

إنـــه يـــرانا في ظلمة الليل البهيم.. يرى أعيننا وهي تتقلب في ظـــلام الليل نخالها تنظر إليه وهي لا تراه .. في خضوع وخشوع .. في تضرع وابتهال .. فكيف لا نعبده .

ولقد صدق القائل :

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النُّحَّل

اغفر لعبد تائب من فرطاتـــــه ما كان منه في الزمان الأول

لقد أدرك قائل هذه الأبيات صدق العقيدة في ذات تتصف بهذه الصفات .. وفي نفس تحققت بمقام العبودية .. وأدركت قمة التعبد .

إنهـــا ذات لا تلمـــس ولا تُمس فتكسر مثلما يحدث للأصنام !! حاشـــا لله .. قادرة لا تقهر فتؤكل مثلما تؤكل آلهة العجوى !! واحدة لا تـــنازع في ملكها فتعارض مثلما يحدث من صراع بين آلهة النور وآلهـــة الظـــلام ، أو بين آلهة الخير وآلهة الشر .. غنية لا تفتقر .. كـــريمة لا تبخل .. ومريدة لا تندم .. وعالمة لا تجهل ، مثلما وصف اليهود إلههم !!

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الإله الخالق :

إنـــه تعالى – كما تنبئنا الآيات – (خالق كل شئ) ومن لوازم الخلـــق : العلم .. إذ لا خلق عن جهل ، والإرادة .. إذ لا خلق بدون قصـــد والقدرة .. إذ لا خلق عن عجز .. والإحاطة .. إذ لا خلق مع قصور أو تفريط .

وكل ما في الكون دق أو كبر..عظُم أو صغر.. رؤى أو استتر حضر أو غاب .. شوهد أو لم يشاهد .. إنما هو من خلق الله تعالى .

ولقد صدق الله سبحانه إذ قال : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾ [١] .

وهو تعالى – كما تنبئنا الآيات – (بكل شئ وكيل) وكيل بتدبيره وتصريف شئونه ، وحفظه والعناية به [٢] .. يسبب أسبابه ويقطعها . يبقيه إن أراد له البقاء ، ويفنيه إن أراد له الفناء ، ويجعله نعمة ويصيره نقمة .. يبقي فيه خواصه أو يسلبها ، مثلما فعل بالنار إذ أُلقي فيها نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾ [٣] ..

فسبحان القادر على السلب بعد العطاء ، ومصير الأمر إلى طبيعته بعد السلب ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون** ﴾ [٤] .

[ب] **التعريف بالصفات :**

كما عرف القرآن الكريم بذات الله عرف بصفاته ، إذ لا يمكن فهم الذات بدون التعريف بالصفات .. وتأتي أهمية التعريف بالصفات لبيان متعلقات الذات الإلهية ، ولضبط تصور الإنسان العابد لصفات الله تعالى المعبود ، حتى لا يخلط ولا يتوهم ، ولا يخرص ، فينسب

---

[١] سورة النحل (١٧) .
[٢] راجع : مفاتيح الغيب للإمام الرازي (١٣ / ٩٩) مرجع سابق .
[٣] سورة الأنبياء (٦٩) .
[٤] سورة الأنبياء (٢٣) .

مـــا ليس لله ، ويلحق ما هو من عوارض البشرية بالذات الإلهية ، فيوقعه ذلك في التيه والحيرة ، ولا يتأتى مع ذلك يقين .

وعـــدم اليقيـــن يدفـــع إلـــى الشك والشك يدفع إلى الاعتراض والاعـــتراض يســـلم إلى الكفر ، وبذلك يفوت مقصد الرسالة ، وهو الإقرار بالذات الإلهية وبصفاتها .

فصفات الله تعالى ليست كصفات غيره .. فهي تستمد قوتها من قـــوة الذات العلية .. إنها تتسم بالكمال المطلق ، وتتنزه عن كل نقص قال الله تعالى ﴿ **ليس كمثله شئ وهو السميع البصير** ﴾ (١) .

والله تعالى بهذا يعرِّف بذاته وبصفاته ، فينفي عنه المثْلية ، إذ المثلـــية من صفات المخلوقات ، والله تعالى لا أول لوجوده ولا انتهاء لـــه ، فهو خالق لا مخلوق سبحانه وتعالى .. قوي لا ضعيف .. غني لا فقـــير .. إنه كل لا يُجزَّأ .. وذات لا تشبه ، ولا يمكن أن تتجسد .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

أهمية التعريف بالذات والصفات للمدعو :

تأتـــي أهمية التعريف بالذات والصفات لضبط مسيرة الإنسان العقديـــة ، ويقظـــته الإيمانـــية ، واستقامته السلوكية ، وترقبه للكمال الخلقي، وتحققه بخشية الله تعالى ومراقبته ، والخوف من التقصيـــــر

---

(١) سورة الشورى (١١) .

في حقه ، والتفريط في جنبه ، والخلود إلى الأرض ، والركون إلـــى المادة ،والاستغراق في الشهوات والملذات ، والرضا بالمذلة والدعة .

إنـــه يأبى إلا العزة بالله ، والانتصار له ، والحفاظ على دينه ، والـــتجرد للحـــق ، ومحاربة الهوى ، ومجانبة الباطل ، والترفع عن الـــترهات والسفاســـف ، وكراهـــية الفســـاد والفسوق ، والعودة إلى المعصية بعد التوبة ، وإلى الضلال بعد الهداية .

إنـــه ينشـــط لتحقـــيق الإيمان بالتقرب إلى الله تعالى بطاعته ، والأنس بقربه ، والانشغال به عمن سواه .

وهـــذا يجعلـــه في يقظة دائمة ، ومراقبة مستمرة لما يصدر عنه من أفعال ، وما يلفظ به من أقوال .. علم أن الله تعالى غنياً فلم يتوجه إلى غـــيره بطلـــب ، وأنه قوياً فلم يستعن إلا به ، وأنه مطلعاً عليه ، فلم يستتر منه ، وأنه قادراً عليه فاستكان له قلبه ، وخشعت له جوارحه ، وأنـــه ودوداً فأتـــنس بـــه ، وأنـــه عالمـــاً فتعبده بعلمه ، وأنه عزيزاً فاستنصره ، وأنه حياً لا يموت فتوكل عليه .

وعلـــم أنـــه تعالى يتصف بالكمال فنزهه عن صفات الحوادث والعـــوارض والـــنقائص ، وأنـــه واحداً فاطمأن له قلبه ، وأخلص له العبادة ولم يشرك به شيئاً ، وأنه غفوراً رحيماً ..عفواً كريماً .. فطمع في مغفرته ورحمته وعفوه ، وأنه قوياً شديد العقاب فخاف عذابـــه ،

وتوقى عقابه ، وألان له جانبه.. وعلم أن المصير إليه ، وأنه لا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه ففر إليه، ولم يلجأ إلى غيره ، وتبرأ ممن سواه .

وعلم أن الله تعالى هو المدبر المقدر ، فرضي بقضائه واطمأن لقدره ، وأنه يخرق الأسباب فطلب منه الكرامة تثبيتاً له ، واستعاذ به من الاستدراج [١] والإهانة [٢] .

وعلـــم أنـــه تعالى سيعيده إلى الحياة بعد الموت للحساب فعمل لجنته واستعاذ من ناره .

وقس على ذلك علم العبد بباقي الصفات ، وعلمه بقدر الذات العلية .

خطورة الجهل بالصفات الإلهية على المدعو :

لا مـــرية أن الجهـــل بالصفات الإلهية له خطورته على عملية الاســـتدلال فهو يدفع المرء إلى نسبة النقائص لله تعالى ، وإلصاق ما لا يليق بذاته به ، كما يدفعه إلى عدم تقدير الله تعالى حق قدره .

وهـــذا قـــادح في الإيمان مخرج من الملة – معاذ الله تعالى– ولعـــل هذا ما أوقع اليهود في مهاوي الاعتقاد إذ لم يقدروا الله تعالى حق قدره ، ونسبوا إلى ذاته تعالى ما لا يليق به من الصفات .

وقد ذكر القرآن الكريم هذا في معرض الذم وبيان قبـــح مآل

---

[١] الاستدراج : خرق العادة للعاصي استدراجاً له إلى معصية الله لتناله العقوبة منه .

[٢] الإهانة : خرق العادة لمدعي النبوة فتأتي على غير ما أخبر به إهانة له .

اليهود فقال تعالى ﴿ **ومـــا قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [١] .

وذم قولهـــم " يد الله مغلولة " ولعنهم به ، فقال تعالى ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ...** ﴾ [٢] .

كمـــا ذم نسبتهم الغنى لأنفسهم والفقر إلى الله تعالى فقال تعالى ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ [٣] .

وجهـــل النصـــارى قدره فألهوا غيره وعبدوه من دونه تعالى وقالوا بالتثليث والتشبيه [٤] ، وقد ذكر القرآن ذلك وأبطله ، وذمهم

---

[١] سورة الزمر (٦٧) .

[٢] سورة المائدة (٦٤) .

[٣] سورة آل عمران (١٨٠ ، ١٨١) .

[٤] راجع تفنيد ذلك في الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة وآخرون . دار الجيل بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م (٢ / ١٩٣) وإغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية (٢ / ٢١٠) وما بعدها ، المكتبة الثقافية ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، وإظهار الحق لرحمت الله الهندي (٣ / ٦٨١) وما بعدها ، تحقيق : د / محمد ملكاوي ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد . السعودية ، ط (١) ١٤١٠هـ ، والإعلام بما في دين النصارى من أوهام للقرطبي تحقيق د. أحمد حجازي السقا (١ / ٧١ ، ٧٧) دار التراث العربي بدون تاريخ ، وراجع : إظهار الحق لرحمة الله الكيرانوي ، تحقيق وإخراج عمر الدسوقي (٢ / ٢٥) وما بعدها . الشئون الدينية بقطر . بدون تاريخ .

عليه فقال تعالى :

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ [١] .

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ [٢] .

ولقد جهل قدر الله تعالى من قبل هؤلاء وأولئك قوم نوح عليه السلام ، وذكر القرآن ذلك وعابهم عليه فقال تعالى **﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً .. ﴾** [٣] .

وثمة أمثلة أخرى ساقها القرآن الكريم تبين خطورة الجهل بصفات الله تعالى ، كما تبين أن ذلك نقص في الاعتقاد يدفع إلى الكفر بالله تعالى والشرك به .. معاذ الله .

ثانياً : التعريف بحقيقة التوكل :

عرف القرآن الكريم في معرض الاستدلال بحقيقة التوكل ، فلم يقف عند حد الأخذ بالأسباب ، وترك النتائج على الله فقط ، وإنما عرف بحقيقته ، وما يجب أن يتوفر فيه من قضايا تمحص الإيمان ، وتؤكد الثقة بالله تعالى رب العالمين ، ومن هذا ما يلي .

---

[١] سورة المائدة (٧١) .
[٢] سورة المائدة (٧٢) .
[٣] سورة نوح (١٣) .

١ – بيان حتمية الثقة بالله تعالى ، لأنها جوهر التوكل .

٣ – عدم التدخل في النتائج حتمية التسليم المطلق لله تعالى فيها .

٤ – التسليم بأن الله تعالى يتحقق بطلاقة القدرة وكمال التصريف في الأسباب والنتائج .

٥ – بيان أن الله تعالى هو المتحقق بشروط التوكل وحده .

٦ – بيان أن المتوكل عليه يجب ألا يكون من ذوات الأغيار، وأن يكون منزهاً عن هذا .

فالمتوكل عليه يجب أن يتحقق بالحياة والبقاء والديمومية ، وأن يكون ذلك بيده ، والله تعالى هو وحده المتحقق بهذا .

أما أن تكون حياته (أي المتوكل عليه) بيد غيره ، فإنها عندئذ قد تصير مهددة بالانقطاع ، وتتلاشى بانقطاعها الآمال ، ويضعف الاعتقاد بها ، وتتلاشى الثقة فيها ، مما يجعل الإنسان يقدم عليها في البداية بين خوف من موت المتوكل عليه وبين ضياع المرغوب فيه والمأمول لديه .

إلى جانب ذلك يجب أن يكون المتوكَّل عليه قادراً على إنفاذ وعده ، فلا يقاوَم ولا يعارَض ولا ينازَع ، وألا يكون من ذوات الأغيار ، فيتحول من الرضا إلى الغضب ، مما يؤثر سلباً على المأمول ، فيضيع أمل المتوكل تحت وطأة الغضب. ويكون تحقيق

مصلحته مرهوناً بمقدار ثبات المتوكل عليه على حالة واحدة ، فضلاً عن أن المتوكَّل عليه يجب أن يتحقق بالرحمة .

ومن مقتضى الرحمة تفويت المأمول على المتوكِّل ، دفعاً لضرر قد يلحق به ، كما يجب أن يكون عالماً خبيراً بطبيعة الأشياء وأسبابها ، حتى يلبي للمتوكل سؤله وحاجته ، ويجب أن يعتقد المتوكل اعتقاداً جازماً أن الله تعالى لا يفعل به إلا الخير ، وقد يكون الخير في تفويت مصلحة ظاهرة لحكمة يعلمها هو ، والله تعالى وحده هو المتحقق بهذا .

وهذا التعريف بحقيقة التوكل وما يجب أن يتحقق به المتوكَّل عليه وما يشترط في المتوكل يمحص قضية التوكل ، ويملأ قلب المتوكل عزماً على التسليم المطلق لله تعالى ، وثقة كاملة في قادريته وقاهريته .

ودليل هذا قول الله تعالى :

﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً . الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾ [١] .

وقال تعالى **﴿ فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾** [٢]

---

[١] سورة الفرقان (٥٨ ، ٥٩) .

[٢] سورة النساء (٨١) .

وقـــال تعـــالى ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ (١) .

وقـــال تعـــالى ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين. إنه هو السميع العليم ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ (٣)

والمـــتأمل في هذه الآيات يجد أنها بينت حقيقة التوكل وحيثياته ومقتضياته ، على نحو ما سبق بيانه .

أهمية التعريف بالتوكل للمدعو :

تأتـــي أهمـــية التعريف بالتوكل للمدعو من حيث أنها بينت له وجه العبادة الصحيح والكامل في عقيدة التوكل ، وعرفته تعريفاً حقيقياً كاملاً بالله سبحانه وتعالى .. فهو تعالى عزيز رحيم .. سميع عليم .. خبـــير بصير .. بيده مقاليد كل شئ .. متصرف في كل أمر .. منزه عن الأغيار .

وهذا مما يملأ قلبه صدقاً ويقيناً ، وإيماناً وعزماً ، ويحققه بمقام العبودية لله تعالى .

---

(١) سورة هود (١٢٣) .

(٢) سورة الشعراء (٢١٧ – ٢٢٠) .

(٣) سورة النمل (٧٧ ، ٧٨) .

خطورة عدم التعريف بقضايا المدعو إليه :

تكمـــن خطـــورة عدم التعريف بقضايا المدعو إليه في أن عدم تعـــريف الداعي بموضوع دعوته يكون مدعاة للبس والغموض ، ولا يخفـــى ما لعدم وضوح المعاني في ذهن المدعو من خطورة كائنة في إحجامه عن التعبد الصحيح ، أو التخبط في الاعتقاد ، والجهل بقضايا الدين ، من ثم لا يستقيم في عبادته ولا يستقر على حال .

وعـــدم التعريف بحقيقة القضية وطبيعتها يؤثر سلباً على العمل الدعـــوي ، إذ يجعل الداعي في واد ، والمدعو في واد آخر ، خاصة أن التعريف بالشئ أولى شرائط الإيمان به ، والتزام العمل بمقتضاه ، وبهـــذا يفـــتقد الانســـجام والتفاعل بين الداعي والمدعو .. إنه سيكون مشتت الأفكار ، مندهشاً ، مذهولاً ، فاتر الحس ، بطئ الاستجابة إن لم يكن منصرفاً عنها .

وهـــذا خطـــأ الداعي لا المدعو ، لأنه خالف قاعدة أصيلة من قواعـــد المنهج الاستدلالي في نصب الأدلة على قضايا الدعوة ، وهي قـــاعدة الـــتعريفات ، ولا يخفى ما لهذه القاعدة من أثر بالغ في العمل الدعوي ، فوجودها شرط نجاحه ، وغيابها مدعاة فشله .

مـــن ثـــم نجد أن القرآن الكريم يراعي في معرض الاستدلال التعريف بجوانب القضية وبيان طبيعتها ، وثمراتها، وأحكامهـــــا ،

ونصـــب الأدلـــة على ذلك حتى تكون واضحة بينة في ذهن المدعو ، فيقدم إلى عبادة الله تعالى عن علم ويقين وثقة .

وعلـــى الدعـــاة أن يلـــتزموا هذه القاعدة المنهجية في معرض الاستدلال على قضايا الدعوة ، حتى يتحقق لهم نهوض فعلي بدعوتهم وارتقاء إلى مستوى العمل المنهجي الجاد .

المبحث الثالث

ترتيب النتائج على المقدمات

مــن روائــع مــنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ربط المقدمــات بالنتائج ربطاً لا ينفصم ، وترتيب الثانية على الأولى ترتيباً لزومــياً ، إذ لا نتيجة بدون مقدمة ، ولا مقدمة بدون نتيجة ، فالأمور لا تأتي عفوية أو مصادفة ، وإنما تأتي على نحو من التحري والبحث والــتأمل والــتدبر ، والــنظر فــي طبيعة القضايا المادية والمعنوية لاستخلاص المقدمات ، وتلمس النتائج المنبثقة عنها .

هــذا فــي جانــب التفكير النظري ، وكذلك الشأن في الجانب التطبيقــي أو السلوكي ، إذ نجد القرآن الكريم يؤكد في موطن نصب الأدلة إثبات هذه القضية على نحو من القطع واليقين ، يقطع بالحقيقة ، وينفي الظن والوهم والخرص .

ومــن يــتأمل القــرآن الكريم يلمس تركيزه على هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية في سائر القضايا من حيث الإثبات والنفي والهــدم والبناء .. وبيان طبيعة الأشياء ومهاياها .. ومبدئها ومآلها .. وأسباب بقائها وعوامل زوالها ، ومظاهر ثباتها وفنائها .

تأصيل هذه القاعدة :

أولاً : ترتيب النتائج على المقدمات في جانب التفكير النظـــــري وإثبات العقائد :

نجـد القـرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي يثير أمام العقـول في معرض إثباته قضية الوحدانية وإبطال التعددية أو الثنائية العقديـة فـي مجـال الإلهيات ، نجده يثير قضية النتائج والمقدمات والأسـباب والمسببات ، ويؤكد من حيث المفهوم أن سلامة النتائج من سـلامة المقدمات ، وأن المقدمة الصحيحة لا يترتب عليها ولا ينبثق عنها إلا نتيجة صحيحة ، وأن العكس مستحيل وروده .

قـال الله تعـالى ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون . لـو كـان فـيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ (١) .

دلالات التأصيل :

إذا تأملـنا الآية الأولى نجد أنها تتحدث عن فساد عقدي يتمثل فـي " **التعددية الإلهية** " في نظر من اعتقدوها .. هذه التعددية مأخوذة من التعبير القرآني بصيغة الجمع ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض** ﴾ .

وهذا الفساد العقدي ناشئ عن فساد التصور .. إنه نتيجة فاسدة

---

(١) سورة الأنبياء (٢١ : ٢٣) .

لمقدمة فاسدة قامت على أساس التقليد لا على أساس النظر الصحيح ، قامت على أساس إلغاء العقل ورفع شعار التبعية دون فحص ونقد لهذه " التبعـــية " المفروضة بيئياً ، والتي صارت موروثاً عقائدياً بالياً لآباء ســـابقين ضلوا في اعتقادهم ، وتخبطوا في سعيهم .. إنهم عمدوا إلى تعطيل العقل ، بل إقصائه من ساحة الحكم ، وعطلوا حواس إدراكهم فجاءت مدركاتهم على نحو ما جاءت به تلك المقدمات .

ولـــو أنهم نظروا بروية وتؤدة ، وتأملوا في ملكوت السماوات والأرض ، وفكـــروا برجاحة عقل بعيداً عن التحكم ، واتباع الهوى ، وتعطيل الحواس ، لأيقنوا خطأ نتائجهم المتمثلة في " التعددية الإلهية " وأيقنوا خطأ المقدمات التي آلت بهم إلى هذا المآل الآسن .

ولكن ما هي مقدماتهم تلك ؟!

إنها كما يبدو مما سبق تحكيم الموروث البيئي،والخضوع للتقليد العقدي ، وهكذا تصوروا الدين ، وتصوروا آلهتهم .

ويأتـــي القـــرآن الكـــريم ليثبت لهم خطأ مقدماتهم بطريقة تثير التفكـــير، وتدعـــو إلى التأمل والنظر ، وتعرية العقل عن حجبه التي أعمـــته عـــن رؤية الحقيقة في صورة مقدمتين صحيحتين، ونتيجتين صادقتين : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ :

فالمقدمة الأولى هي : " إن تعددية الآلهة سبب لفساد السموات والأرض ، وإبطـــال النظام ، وذلك لإمكانية المعارضة والتنازع بين الآلهـــة ، إذ أنـــه إذا أراد أحـــد الآلهة فعل شئ أراد الآخر إبطاله أو معارضـــته ، ولو أراد إحداث خلافه لبطل لإمكان معارضته أيضاً ، فيلزم الدور والتسلسل ، وهذا محال على الله تعالى " .

والمقدمـــة الثانية :" إن السماوات والأرض موجودتان لم ينكرهما عاقل وباقيتان صالحتان لم تفسدا " (١) .

وهاتـــان المقدمـــتان وغيرهما من المقدمات التي نصبتها أدلة القـــرآن الكريم (مقدمات قائمة على مخاطبة الفطرة ، والحس والعقل والجدل والإعجاز) (٢) بحيث لا يجد المنصف حيالها مناصاً من التسليم بقطعياتها ، وإفادتها اليقين والجزم .

ذلك أنه (من المقررات الأساسية فيما يتعلق بالبرهان أو الدليل في القرآن الكريم : أن قيمته كامنة في إعطاء الاطمئنان وزيادة اليقين الإيمانـــي ، وبالتالـــي تزيد الموقن يقيناً على يقينه ، وتزيل الشبهة ، كذلـــك فإن مسألة البرهان اليقيني مسألة موضوعية لها علاقة بالدليل أي أنها تدور مع الدليل وجوداً وعدماً ، لأن اليقين هو الأساس الـــذي

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي (٢٢ / ١٣٠) مرجع سابق . والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥ / ٤٤٤١) دار الغد العربي ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

(٢) أسس اليقين بين الفكر الديني والفلسفي : د / يوسف محمود محمد (ص ٢٥٧) دار الحكمة . قطر . الدوحة ، ط (١) ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

قـــام عليه البرهان القرآني ، قال تعالى ﴿ **وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين** ﴾ [١]) [٢] .

والنتيجة الصادقة لهاتين المقدمتين ثبوت وحدانية الله تعالى لما يلي :

١ – أنـــه تعـــالى لم يعارض ولم ينازع في ملكه ، ولم يبطل مـــراده ، ولـــم يخرج حتى الآن من يدعي ذلك ، ولن يحدث إلى يوم القيامة .

٢ – أن فعله تعالى نفذ ، ومراده تم من خلق السماوات والأرض وما فيهما ، فدل ذلك على أنه واحد .

ومن أدلة التأصيل لهذه القاعدة المنهجية قول الله تعالى :

﴿ **قـــل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقـــوا مـــن الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم إلا غروراً . إن الله يمسك الســـماوات والأرض أن تـــزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ [٣] .

تأملات في الآيتين الكريمتين :

إذا تأملنا هاتين الآيتين ألفينا ما يلي :

---

[١] سورة الأنعام (٧٥) .

[٢] أسس اليقين : د / يوسف محمود (ص ١٩٤) مرجع سابق .

[٣] سورة فاطر (٤٠ ، ٤١) .

١ – جـــاءت أولاهمـــا لتعجز المشركين ، وتبين لهم بأسلوب واقعـــي وبطريق عقلي يثير العقل ويدفعه إلى التأمل والتدبر والتفكير فـــي القضية المثارة .. وتضع أمامه مقدمات ضمنية تفهم من منطوق السياق .

مـــن يُعبد بحق يجب أن يكون خالقاً متفرداً بالخلق لا شريك له فـــيه ، وهـــذا برهان واضح من براهين الوحدانية ، فماذا خلقت هذه الآلهة التي تعبد من دون الله ؟!

ماذا خلقت من الأرض التي هم عليها ؟!

أم لهم شرك في خلق سماوات لم يستطيعوا الارتقاء إليها ؟

ولـــو فُـــرض جدلاً أن لهم كتاباً يتبينون منه ذلك ، فلن يكون إلا من عند الله تعالى الواحد ، لكن شيئاً من ذلك منه لم يرسل إليهم ، وذلك على سبيل التهكم والسخرية ، لمخالفته النظر الصحيح ، والعقل السليم ، والمنطق الواضح ، والبرهان القاطع ، والحجة البالغة .

١ – المقدمات والنتائج المستنبطة من هذه الآية :

أ – إن الذي يخلق من العدم هو المتحقق بالإلهية .

ب – ثبت عدم قدرة آلهتكم وعجزها عن الخلق .

ج – وثبت قدرة الله تعالى على ذلك وتحققه به وتدبيره .

والنتـــيجة لذلـــك : بطلان ما تعبدون ، ونفي ما تشركون به ، وإثبات وحدانية الله تعالى .

٢ – وتأتـــي الآيـــة الثانـــية لتنصب أمام العقل مقدمات ونتيجة يحقق الواقع صدقها وصحتها .

أ – السموات والأرض باقيتان متزنتان لا تزولا .

ب – وهي مفتقرة في ذلك إلى إله قوي قادر مدبر مريد مختار عليم لإمساكهما ، ولا يستطيع إمساكهما غير الله .

ج – وإن تلاشـــت حالة اتزانهما وثباتهما وزالتا فلن يقدر على إمساكهما أحد من بعده .

والنتـــيجة : أن القادر على حفظ السموات والأرض من الزوال هو الله تعالى ، ولم يقدر على ذلك غيره ، فهو إذن المتحقق بالألوهية المتصف بكمال الربوبية ، سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

ومـــا أروع القـــرآن الكريم وهو يقرر هذه القاعدة في منهجه الدعـــوى الاســـتدلالي ، والأدلة على ذلك كثيرة لا تستطيع إحصاءها كلها في هذا البحث ، لذا نكتفي منها بهذا .

ثانياً : ترتيب النتائج على المقدمات في الجانب العملي والسلوكي :

كمـــا ركز القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي على ترتيب النتائج على المقدمات ، نجده يركز – أيضاً – على هذا الترتيب في جانب التطبيق والسلوك لضبط الإيمان، وإصلاح مسيرة الأخلاق ، معتمداً على إقناع العقل بهذا .. إذ كل مقدمة لها نتيجة .. ولا توجـــد

وقال تعالى ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾ [١] .

وقال تعالى ﴿ **ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ [٢] .

وقال تعالى ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهُونِ بما كانوا يكسبون** ﴾ [٣] .

وقال تعالى ﴿ **وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً** ﴾ [٤] .

وقال تعالى ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .. فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً** ﴾ [٥].

دلالات التأصيل :

لا مرية أننا إذا تأملنا هذه الآيات الكريمة نجدها بينة واضحة الدلالة في ربط الأسباب بالمسببات في جانب العمل والتطبيق السلوكي للقيم الأخلاقية والدينية ، وذلك لما يلي :

---

[١] سورة الأعراف (٣٩) .
[٢] سورة يونس (٥٢) .
[٣] سورة فصلت (١٧) .
[٤] سورة الكهف (٥٨) .
[٥] سورة فاطر (٤٥) .

١ – إن كـل نفس أحسنت فمصيرها حسن ، وكل نفس أساءت فمصيرها سيء .

٢ – إن الإنسان يجازى بعمله ، ويؤاخذ بما كسب .

٣ – لم يصب إنسان بمصيبة إلا بما قدمت يداه .

٤ – ظهـور الفساد في البر والبحر إنما كان بسبب ما كسبت أيدي الناس .

٥ – الذيـن يكسبون السيئات يأتون يوم القيامة وكأن وجوههم قطعاً من الليل مظلمة .

٦ – إن الأقـوام السابقة أهلكوا بالإبادة والاستئصال بسبب ما قدمـت أيديهـم ومـا كسـبوا من معصية الله تعالى ومعارضة دينه والاستكبار على رسله ، بل وإيذائهم وتعذيبهم .

٧ – إن الحـدود مسببة بأسباب لا يطالب بتطبيقها إلا على من تحقق بواحد من أسبابها .

ولعله من خلال هذا تتضح صورة ترتيب المقدمات على النتائج بربط الأسباب بالمسببات .

[ب] ربط الجزاء بالشرط :

كمـا أتـت قاعدة " **ترتيب النتائج على المقدمات** " في صورة ربط الأسباب بالمسببات ، تأتي هنا في صورة الشرط والجزاء فبينهما

مـــن الـــترابط مـــا لا يمكن فصله ، إذ الجزاء مترتب على الشرط ، والشرط سبب لحصول الجزاء .

فـــإذا وجـــد الشرط وجد الجزاء ، ولا جزاء في صيغة الشرط بدون شرط .

فمن يعمل صالحاً لا يجد إلا ثمرة صالحة .

ومن يزرع الشوك لا يجني الورود .

ومن يزرع الحقد لا يجني حب الآخرين .

ومن يغرس حب الذات لا يجد من يضحي من أجله .

ومن تقرب إلى الله تعالى لا يجني شقاق البعد عنه .

وأنت تقول موجهاً : إن فعلت كذا نلت كذا ، إن أطعتني أطعتك إن خالفتني خالفتك .. وتقول لولدك وطلابك : إن ذاكرتم نجحتم ، وإن لم تذاكروا لن تنجحوا .. من أطاع الله دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ، وهكذا .

إنـــه ربـــط منطقي وتقرير عقلي ، فمن رضي بالشرط تحمل الجـــزاء ، لأنـــه يعلم سلفاً أنه متحمل نتيجته ، ومسئول عما قطع مع غيره من عهد .

والشـــرط والجزاء صورة من صور قطع العهد وإنجاز الوعد وتحديـــد الموقـــف ، وتمحيص الهوية الإيمانية ، ونجده عند التحقيق متضمناً معنى الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والبشارة والإنذار

ومـــن شأنه أنه يحمل الإنسان على الجد والاجتهاد في العمل والطاعة والعبادة .

والمتبرم من الشرط والجزاء بعد قطعه ، والمعترض عليه في حسن جانبه ، إما غافل أو مغرض أو صاحب هوى .

ويأتـــي الجـــزاء أثراً مباشراً للشرط على وجه اللزوم لا على وجـــه الاحـــتمال ، فالإنسان ملزم بما وافق عليه أو قطعه من شرط ، ويحمل على الوفاء به إن تقاعس عنه .

ويؤكد قيمة الشرط والجزاء اللزومية ما روي عن الرسول ﷺ : (المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً) [١] أي ملزمون بما قطعوه على أنفسهم .

حدود الشرط والجزاء :

الشـــرط والجـــزاء لم يكن قيمة مطلقة بدون ضابط في مجال الإلزام والالتزام ، وإنما هو قيمة مقيدة بالاستطاعة والقدرة على إنجاز الشـــرط وتحقـــيق الجزاء ، إلى جانب أنه مقيد بألا يخرج عن دائرة الحـــلال ويخـــترق دائرة الحرام ، وهذا ما يبدو مما سبق " إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً " .

---

(١) سنن الدارقطني (٢ /٢١) كتاب البيوع ، حديث رقم (٢٨٦٩) دار الفكر ، ط ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

إطلاقات الشرط والجزاء في القرآن الكريم :

جـــاءت إطلاقات الشرط والجزاء في منهج الاستدلال من حيث إقامة الحجة من الله تعالى على الخلق في صورتين :

أولاهما : ما يتضمن معنى الخير والثواب .

ثانيتهما : ما يتضمن معنى الشر والعقاب .

أولاً : ما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الخير والثواب :

فـــي موطـــن إقامة الحجة ونصب الدلالة على عدالة القضية ، والقطع بوفاء الله تعالى بما قطع على نفسه مع عبيده من شرط وجزاء – ولا يجب عليه تعالى شئ– من إثابة الطائعين، والتوبة على التائبين وقـــبول رجاء العبد ، وتضرعاته إليه تعالى في خلواته وجلواته .. في سره وعلانيته .. وسواء أكان مستخف بالليل أو سارب بالنهار .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ ومـــن يعمـــل مـــن الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ [١] .

ويقول الله تعالى **﴿ ... فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادة ربه أحداً ﴾** [٢] .

---

[١] سورة النساء (١٢٤) .

[٢] سورة الكهف (١١٠) .

ويقــول تعــالى ﴿ **ومــن يعملْ من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً** ﴾ (١) .

ويقــول تعــالى ﴿ **فمــن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كُفران لسعيه وإنا له كاتبون** ﴾ (٢) .

ويقــول سبحانه ﴿ **.. ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه ســيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾ (٣) .

ثانياً : ما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الشر والعقاب :

مثلما يقال فيما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الخير والثواب يقــال هــنا فــي نقيضه مع التفريق بين طبيعة الخير والشر والثواب والعقاب . ومن حيث عرض الاستدلال على عدالة القضية الإلهية في ترتيب النتائج على المقدمات في صورة الشرط والجزاء .

ودليل ذلك قول الله تعالى :

﴿ **من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجدْ لــه من دون الله ولياً ولا نصيراً** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة طه (١١٢) .
(٢) سورة الأنبياء (٩٤) .
(٣) سورة التغابن (٩) .
(٤) سورة النساء (١٢٣) .

وقال تعالى ﴿ **ومن يعمل مثقال ذرة شراً يرَه** ﴾ [١] .

وقال تعالى ﴿ **ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ [٢] .

وقال تعالى ﴿ **ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل** ﴾ [٣]

وقال تعالى ﴿ **ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ [٤] .

وقـــال تعالى ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ [٥] .

تأملات في الآيات الكريمة :

لا مرية أن دلالة الآيات الكريمة على ورود المقدمات والنتائج فـــي صورة الشرط والجزاء في معرض الاستدلال على العدل الإلهي واضحة وضوحاً لا خفاء فيه ، وبينة بياناً لا لبس فيه .

فمـــن يعمـــل الخير لن يحصد غير الخير .. ومن يعمل الشر لا يحصد غيره.. ومن ضل فإنما يضل على نفسه ، ومن عمى فعليها .. مـــن يؤمن يُجازَى خيراً ومن يكفر يُجازَى شراً .. ﴿ **كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة** ﴾ [٦] .

---

[١] سورة الزلزلة (٨) .
[٢] سورة الأنعام (٨٨) .
[٣] سورة البقرة (١٠٨) .
[٤] سورة النساء (١١٦) .
[٥] سورة النساء (١٣٦) .
[٦] سورة المدثر (٤١) .

ونتيجة العمل مسئولية فردية لا جماعية .

هذه قضية عادلة ، وليس من العدل أن ينتظر المسيء الثواب ، ولا المحسن العقاب ، ولا أن يدخل المؤمن النار ولا الكافر الجنة .

- نسأل الله تعالى الجنة ونعيمها ، ونعوذ به من رؤية النار وعذابها -

(وعـــدم تطبـــيق هذه القاعدة يؤدي إلى اختلال ميزان الثواب والعقاب على من أحس أو على من أساء .. وهذا ما يضيع كل شئ.. فبدلاً من أن نعطي المحسن.. نعطي المنافق والمرائي.. والذي يغضب الله ليرضـــيك .. والذي يزيف أو يزوِّر من أجلك .. لقد أخذ الإنسان مبدأ وضعه الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى المحسن .. فأفسده بسوء تطبيقه) [١] .

فخرق هذه القاعدة إذن إفساد في الأرض ، لأنها تغاير شرطية المقدمة للنتيجة والسبب للمسبَّب ، ويترتب عليها في معرض الاستدلال قلب حقائق الأشياء ، وتغيير خصائصها وسماتها ، وهذا عبث محض يجب أن يتنزه عنه الأسوياء .

ترتيب النتائج على المقدمات قاعدة شرعية :

ويتضـــح من خلال ما سبق سوقه من آيات كريمات في قضايا الإثبات والنفي في مجال العقائد ، وفي ربط الأسباب بالمسببات ، والشرط

---

(١) القصص القرآني في سورة الكهف : فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (ص ٨٢) طبعة أخبار اليوم .

بالجـــزاء ، أن الله تعـــالى جعـــل ترتيب النتائج على المقدمات قاعدة شـــرعية بحيث لا يدخل الجنة إلا من يستحقها ويعمل لها ، ولا يدخل النار إلا من قصَّر أو فرط في جنب الله تعالى – معاذ الله .

وعمل العبد مقدمات يترتب عليها نتائج ، فالعبد إن صلح صلح عمله ، وإن فســـد فســـد ، ولا معـــنى للثواب ولا للعقاب بدون عمل ، وقعود الإنسان عن العمل الصالح غير وارد شرعاً ، لأنه مكلف، وهو مقدمة للفـــلاح وســـبب للنجاة ، فمن أراد الفلاح فليعمل على رضوان الله ، وليهـــتدي بهداه ، وليستقم ابتغاء مرضاة الله ، وهذا مطمعنا وما نؤمّل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل .

ترتيب النتائج على المقدمات مبدأ عقلي :

لعله اتضح مما سبق أن ترتيب النتائج على المقدمات، والشرط علـــى الجـــزاء وربط الأسباب بالمسببات قسمة عقلية تقتضيها العقول الســـليمة ، وهـــي إلى جانب كونها قاعدة شرعية مبدأ عقلي ، أذ أنها معطـــيات عقلية محسومة أجمعت العقول على صدقها ، بحيث لا تقبل النزاع ولا الجدل ، كما لا يرتاب أحد في أن الإنسان " كائن مفكر " ، وطالمـــا أنه يفكر إذن فله عقل ، وهذا استدلال بالأثر على المؤثر أو المصدر ، إذا استدللنا بالتفكير على وجود العقل ، لأنه أثر من آثاره ، بـــل إنـــه منبـــثق عنه ، وهذه مقدمات ونتائج أو مبادئ أقرت العقول السليمة حقيقتها ، ذلك أن من قواعد المنهـــج القرآني في الإثبـــات

(الانطلاق من المقدمات الأولية في العملية البرهانية بأمور مؤيدة مع مراعاة العلم والبعد عن الظن والجهل﴿ **ولا تقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** ﴾ (١)) (٢).

وهذا المبدأ العقلي هو المحرك للإنسان للالتزام بقضايا الشرع وتصديق الأنبياء والرسل والدعاة الراشدين .

من ثم(جاء الوحي على أيدي المعصومين الصادقين من الأنبياء ليمد العقل الإنساني بالمدركات في علاقات الكون وموضع الإنسان منها ، ومهمة وجوده تجاهها ، وقواعد علاقاته الإنسانية والاجتماعية الأساسية اللازمة لترشيد سعيه ، وتحقيق غاية وجوده) (٣) .

خرق الله تعالى للأسباب وصرفه للنتائج لا ينقض القاعدة :

قد يلتمس الإنسان المقدمات ، ويجِدُّ في إحكام نتائجها ، لكن الله تعالى قد يحول بينه وبين ذلك ، أو يعطل ظهور النتائج على وفق الترتيب السابق .

كما أن الإنسان قد يلتمس من الأسباب أقواها ، لكن الله تعالى قد يعطل تلك الأسباب ، فلا يصل الإنسان بها إلى شئ من مراده .

---

(١) سورة الإسراء (٣٦) .

(٢) أسس اليقين : د / يوسف محمود (ص ٢٠٩) مرجع سابق ، والقصص القرآني في سورة الكهف ، فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (ص ٦١) مرجع سابق .

(٣) إسلامية المعرفة . المبادئ العامة . خطة العمل .. الإنجازات (ص ١١٣ ، ١١٤) مرجع سابق .

وقــد يخــرق الله تعالى ما اعتاده الناس وألِفوه ، فتأتي النتائج لبعض ممن أراد الله بدون مقدمات على غير العادة ،أو تأتي المسبّبات بلا سبب يلتمسه الإنسان .

ومما يجب مراعاته في عملية الاستدلال أن هذا لا يعني نقض قــاعدة ترتيــب النــتائج على المقدمات ، وربط الأسباب بالمسببات ، والشــرط بالجــزاء ، وإنمــا يعني ترسيخ اعتقاد من يباشر الأسباب والمقدمات ، ويعقد الشروط بأن الله تعالى هو المدبر وهو المسير ، إن شاء أمضى الأسباب وإن شاء عطلها ، وإن شاء خرقها وإن شاء أنفذ المقدمات وأجرى النتائج ، وليس على الإنسان إلا أن يعقد الأسباب ، وينشئ المقدمات ، ثم يترك النتائج لله سبحانه وتعالى .

وفي ذلك غايات منها ما يلي :

الغايــة الأولى : إثبات طلاقة القدرة الإلهية والقاهرية لأسباب الأشــياء والهيمــنة على مقدرات الأمور ، ليتفرد سبحانه وتعالى بها لا يشاركه في ذلك شريك ، ولا ينازعه فيها أحد .

الغايــة الثانية : إثبات عجز المخلوق ، وافتقاره الدائم إلى تلك القدرة التي تدبر له أموره وتصرِّف له شئونه ، ليستشعر برد الإيمان ويــأنس بالطمأنينة ، وينعمَ بذلك النعيم ، فيقوِّم حاله ، ويصلِحُ شأنه ، وينشط لعبادة ربه خالقه وبارئه ومولاه .

الغاية الثالثة : تأييد الأنبياء بالمعجزات .

الغاية الرابعة : ابتلاء الخلق ، وتمحيص إيمانهم .

ولهاتيـــن الغايتين جاء القرآن الكريم في معرض الاستدلال بنماذج من خـــرق الأسباب ، وقلب مهايا الأشياء ، وتغيير طبائع الأمور ، ترى فيها النتائج مجراه ، والمقدمات معطلة ، وترى المسبَّبات قد أتت على غير مراد المسبِّب ، ويتغير ما يوقَن أنه شر إلى محضِ خير .

فذلـــك آدم عليه السلام يُخلـــق بلا أب ولا أم !! وتُخلق منه حواء !! وذلك عيسى عليه السلام يأتي من أم بلا أب !! وناقة صالح عليه السلام تأتيهم وفيها من الآيات ما يعجزون عن الإتيان بمثلها !! وتلك النار التي ألقي فيها نبـــي الله إبراهـــيم عليه السلام ليحرق بها ، فإذا هي برد وسلام عليه !! إنه يتمـــتع فيها بالنعيم مؤتنساً بربه ، مطمئناً له !! ومن رموه يتلذذون بما يـــتوهمونه به من إحراق وتعذيب واستئصال .. وقد نُجي بأمر الله .. وتلك سكين إبراهيم التي أراد بها أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام ، تحقيقاً لـــرؤيا أراه الله إياها ، فإذا بها تُسلب منها خاصية الذبح أو تُعطل عن أداء وظيفتها !! وذلك حدث الإسراء والمعراج الذي وقع لرسول الله ﷺ خـــرقاً لكل القوانين والنواميس الطبيعية ، وما جرت عليه الأعراف ، وما قطعت بضرورته العقول !!

وغير ذلك كثير نكتفي بالإشارة إليه بهذه النماذج .

وليخبرنا من يقول بحتمية ترتيب النتائج على المقدمات ، ومن يرى حتمية ربط الأسباب بالمسببات على وجه الإطـــلاق ، لماذا لـــم

تحـــرق الـــنار إبراهيم عليه السلام ؟! وكيف خلق آدم من تراب ؟! بل كيف جاء عيسى بدون أب ؟! ولماذا لم يذبح السكين إسماعيل عليه السلام ؟!

بل كيف نجا الرسول ﷺ من الإبادة بالمادة المضادة في الفضاء أثناء عروجه إلى السموات العلا وفقاً لمعطيات العلم الحديث ، حيث

اكتشـــف العلماء هذه المادة في أماكن محددة في الفضاء يستحيل معها نفاذ أي جسم إلى ما وراء ذلك (١) ؟!!!

أين المقدمات والأسباب من هذا ؟!

لم يصح إلا القول بأن الله تعالى تفرد لنفسه بذلك بحيث لا يجري فـــي الكون إلا مراده تعالى ، ولا يركن الإنسان إلى الأسباب ويتناسى المســـبِّب الحقيقي لها وهو الله تعالى ، ولا يقطع بحتمية النتائج فيأخذه الغرور .

إنـــه يجـــب عليه أن يكون في رجاء دائم في الله تعالى .. في توكـــل كـــامل عليه سبحانه .. في تسليم مطلق لتقدير ربه وتدبيره ، وليعلم أنه ليس له في نفسه شئ ، لكن هذا لا يعني التواكل والاستكانة وإنمـــا يعنـــي مباشرة الأسباب وترك النتائج على الله تعالى ، وإنشاء المقدمات والتضرع إلى الله تعالى بأن تأتي النتائج على وفق المقدمات لا تتخلف عنها .

---

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن : د / منصور حسب النبي (ص ٢١٤) دار الفكر العربي ، ط (٢) ١٩٩١م .

والله تعالى يقول :

﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء . يهب لمن يشاء إناثــاً ويهــب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾ (١) .

وقــال تعــالى **﴿ ألــم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شئ قدير ﴾** (٢) .

إضافة إلى ما سبق فهذا يثبت أمرين :

١ – طلاقة القدرة الإلهية .

٢ – ألا يعتمد الإنسان على عمله ، ولا يركن إلى الأسباب من دون الله تعالى .

(فالإنسان السطحيُّ هو الذي يقف عند الأسباب ، أما المتعمق فهــو الذي يقف عند المسبِّب .. لأنك لو ادعيت أنك قادر على الإتيان بالنتائج .. نقول لك حافظ عليها بأسبابك .. وهذا يدلنا على أن المؤمن يــنظر إلى حقائق العطاء ولا ينظر إلى ذات العطاء ... لأنه قد يكون في المنع عطاء .. ويكون المنع أثمن من النعمة ذاتها .. أنت تظن أنه لم يعطك ، لكنه في الحقيقة بهذا المنع أعطاك) (٣) .

---

(١) سورة الشورى (٤٩ ، ٥٠) .

(٢) سورة المائدة (٤٠) .

(٣) القصص القرآني في سورة الكهف . فضيلة الشيخ الشعراوي (ص ٤١) مرجع سابق .

ويـــبقى القول : إن هذا الخرق للأسباب وتعطيل المقدمات ، أو إبطـــال النـــتائج لا ينقض هذه القاعدة الاستدلالية وهي قاعدة " ترتيب المقدمـــات على النتائج " ، و" ربط الأسباب بالمسببات " بل يرجع إلى ما بيناه سلفاً .

أهمية قاعدة ترتيب النتائج على المقدمات :

تكمـــن أهمـــية ترتيـــب النتائج على المقدمات وربط الأسباب بالمسببات والشرط بالجزاء في موطن الاستدلال فيما يلي :

[١] بـــيان واقعية الدين الإسلامي للمدعو ومدى تقديره للعقل ومقتضيات الحكمة الناشئة من التأمل الدقيق ، والنظر الثاقب ، والعين الباصـــرة ، فـــلا شئ من تكاليفه فوق مقتضيات الطاقة ، إذ لم يُكلف العقـــول بـــإدراك مـــا لا تستطيعه ، أو تعيا عن فهمه ، كما لم يكلف النفس بما لا تطيق أداءه .

[٢] أن ينشط المدعو للعمل والعبادة ويبلغ من الاجتهاد طاقته أخـــذاً بالأســـباب ، وترتيباً للنتائج على المقدمات حتى يستقيم أمره ، ويـــبلغ رشده ، ويبحث عن طبيعة ومهايا الأشياء حتى يقف على آيات الله تعالى فيها ، فينفع نفسه والناس ، ويعمر الكون بالعمل الصالح .

[٣] الارتقاء بالمدعو من درجة الفرض إلى درجة الحقيقة ، ومـــن دائـــرة الشـــك إلى دائرة اليقين ، ومن الظن إلى العلم ، ومن الرفض إلى القبول ، ومن الإنكار إلى الإثبات ، ومن الرد إلى الأخذ .

المبحث الرابع

ترتيب الأحكام على الأدلة

كمـــا هو ثابت في مقتضيات العقول ، ومبادئ التفكير الرشيد ، والـــنظر الســـديد أن النتائج مرتبة على المقدمات ، والمسببـــات على الأســـباب ، والجزاء على الشرط ، فكذلك الأحكام مرتبة – طبقاً لهذه القـــيم العقلية – على الأدلة ، فلا حكم بدون دليل أو برهان أو حجة ، وإلا صار الحكم مجرد دعوى لا سند لها ولا مصداقية ، ويبقى الحكم أسير الادعاء إلى أن يثبت حقيقته بنصب الأدلة ، أو يصير محل شك إلى أن تثبت يقينيته .

والإنســـان فـــي قضية "الاستدلال" مخاطب شرعاً وعقلاً بنصب الأدلـــة على دعواه ، وإلا اختلطت الحقائق بالأوهام ، والعلم بالظن ، والحـــق بالـــباطل ، والاعـــتقاد الصحيح بالاعتقاد الفاسد ، والتشريع المعصوم بالقانون الموضوع ، وقضايا الوحي بنتاج العقل .

وتـــنقطع بذلك سبل الهداية على الخلق ، وتطمس معالم الأشياء وتتلاشـــى قـــيم الحق والصدق والعدل ، وتُعمَّى الحقيقة عن باحثيها ، والنتيجة عن طالبيها ، والحكمة عن ناشديها .

ولعـــل هـــذه العلاقـــة الوثيقة بين الدليل والحكم – في منهجية الاســـتدلال والتي لا يمكن أن تنفصم عراها – هي التي حددت مفهوم " الفقه " في اصطلاح الأصوليين والفقهاء ، بالإضافة إلى المثقفيـــن

والمفكرين ، وعلماء الأمة من المحدثين والمفسرين والمتكلمين .

فمصطلح " الفقه " في المنظور الإسلامي يعني(معرفة الأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية ، والفقيه هو المجتهد ، والممتلك لهذه المعرفة بالأحكام الشرعية كافة . وتتوقف هذه المعرفة على تضلع في اللغة العربية ، وفي نصوص الأحكام في القرآن الكريم والسـنة النبوية ، مع القدرة العقلية والبراعة الذهنية في الوصول إلى المراد منها) [١] .

وقصر مفهوم الفقه هنا على انتزاع الأحكام من أدلتها فقط تقييد لدائـرته ، وتضـييق لمفهومـه ، لكننا إن تأملنا آيات القرآن الكريم وإطلاقاتـه لمادة (ف ق هـ) (سنجدها تتكرر في آيات عديدة على معـنى التفكير والفهم وإدراك الجوهر والتفسير ، بحيث يمكن أن يفهم بهـا : المعـرفة التامة بحقائق الأشياء ، وهذا ما أدركه وأقره الأئمة الأربعة وعلماء السلف رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) [٢] .

فعملية نصب الأدلة في منهج الاستدلال عملية تراعي الحكمـة

---

[١] ، (٢) إسلامية المعرفة : المبادئ العامة . خطة العمل . الإنجازات (ص ٦١ ، ٦٢) مرجع سابق .

وانظر : إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني ، تحقيق أبي مصعب محمد البدري (ص ٤١٧) بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط (٤) ١٩٩٣م ، وراجع من أجل أنطولوجيا إسلامية (مساهمة في تجديد الوعي الإسلامي : محمد مزور . سلسلة دراسات فكرية العدد (٩) وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٣م

الشرعية والعقلية في تفهم أوجه الدلالة في مقام الشرع ، وفقه العقل ، وهي تأكيد لإدراك جواهر الأشياء وتحديد كنهها وماهيتها، فضلاً عن أنها تكسب المنشغل بها قناعات تتوهج في الذهن، وتترسخ في النفس، ويحصل بها اليقين.

وهـــذا المفهوم الواسع للصلة بين الدليل والحكم هو منطلقنا في الدراســـات الدعوية ، إلى جانب الدراسات الأخرى ، إذ أنه يحدد بدقة ملامح الخطاب الديني .

ذلـــك أن (العلـــم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه ، وتـــارة مـــن عموم علته والحوالة على الأول أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر) [١] .

علـــى أن ما نعنيه من هذه العلاقة بين الدليل والحكم هو إثبات الدعوى أو نفيها ، وبيان صحتها أو خطئها .

تأصيل قاعدة ترتيب الأحكام على الأدلة :

لأن الدليل له أثره البالغ في إقناع المدعو واقتناعه ، ونقله من محـــيط الشـــك إلـــى اليقين ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الافتراء المحـــض إلى الانصياع للحق . وهذا من مقتضيات العقول السليمة ، لأن الدليل له هذا الأثر وتلك القيمة ، ولأنه – إذا صح – فرقان بيـــن

---

[١] إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١ / ١٩٦) .

الحــق والــباطل ، والضلال والهداية ، والاعوجاج والاستقامة ، لأنه كذلك راعى القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي حتمية نصب الأدلــة للعقــول لتتراءى فيها قيم الإثبات والنفي ، وتظهر فيها جلية شارات العدالة ومعالم الحق ، ولينحسم بها الجدل ، وينقطع النزاع .

(فالمعــيار الــذي لا يزيغ أن يكون طالب العلم مع الدليل في جميع موارده ومصادره ، لا يثنيه عنه شئ ولا يحول عنه حائل) [١] .

تأصيل القاعدة :

إذا تأملنا القرآن الكريم سنجده مترعاً بالأدلة التي توضح ذلك ، ومنها ما يلي :

قــال الله تعــالى ﴿ **ألم تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربه أن آتاه الله الملكَ إذ قال إبراهيمُ ربيَ الذي يحيي ويميتُ قال أنا أُحْيِي وأميت قال إبراهــيمُ فــإن الله يأتــي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب فبُهِــت الــذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين . أو كالذي مر على قــرية وهــي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه وانظر إلى**

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الإرب للإمام الشوكاني (ص ١٠٤) نقلاً عن معالم تجديد المنهج الفقي . أنموذج الشوكاني . حليمة بو كروشة (ص ١٩٧) كتاب الأمة .العدد ٩٠ – ٩١ . ط ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣ م .

حمـــارك ولـــنجعلَك آيـــة للـــناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكســـوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير . وإذ قـــال إبراهـــيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعـــل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .

دلالات التأصيل :

عندما نتأمل هذه الآيات نجد ما يلي :

[١] قضية " ادعاء " و" إنكار" .

ادعـــاء ماذا ؟! وإنكار ماذا ؟!! .. دعاء " الألوهية " من رجل قال المفسرون عنه إنه (الملك النمرود) (٢) ، وإنكاره إياها على الله تعالى .

[٢] قضـــية نفي وإثبات من نبي الله إبراهيم عليه السلام في محاجة ذاك المدعي .

ومضـــامين قول إبراهيم عليه السلام في محاجته لهذا المنكِر المدعي وإنكار ادعائه ونصب الحجة على فساد تصوره .. مضامين هذا القـــول إذا

---

(١) سورة البقرة (٢٥٨ – ٢٦٠) .

(٢) راجع تفسير روح المعاني للألوسي (٣ / ١٦) دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون تاريخ . وتفسير القرطبي (٣ / ٢٨٣) وما بعدها دار الكتب المصرية ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م ، ومفاتيح الغيب للرازي (٧ / ٢٠) .

كنـــت كمـــا تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصـــرف فـــي الوجود ، في خلق ذراته ومجراته ، وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه شمس تبدو كل يوم مشرقة ، فإن كنت إلهاً كما تدعي .. تحيي وتميت فأت بها من المغرب ؟

فلمـــا علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهـــت أي أخـــرس فـــلا يـــتكلم ، فقامت عليه الحجة.. والله لا يهدي الظالمين ولا يلهمهم حجة ولا برهاناً ، بل حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد) (١)

[٣] قضـــية اســـتدلال علـــى كيفية إحياء الموتى من نبي الله إبراهيم ﷺ طلباً للطمأنينة .

[٤] قضـــية " تأمل " من رجل صالح – على الراجح – قال عـــنه المفسرون إنه عزير ، ولاحظ أن الله تعالى نصب له فيها الأدلة للتثبيت ، وتحقيق اليقين .

وكـــل هـــذه القضـــايا لـــم تكن عارية من الدليل بل طلب فيها الاســـتدلال على صحة الادعاء – كما في قضية ادعاء الألوهية – من ذاك المدعي مع علم نبي الله إبراهيم ﷺ أنه سيعجز عن الإتيان بدليل

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٣١٣) دار التراث بدون تاريخ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود (١ / ٢٩٢) دار الفكر . القاهرة . بدون تاريخ ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ، تحقيق : الرحالي الفاروق ، وعبد الله الأنصاري وآخرون (٢ / ٣٩٧ ، ٣٩٨) مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر . قطر . ط (١) ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

يؤكـــد صـــحة دعـــواه لعلمه اليقيني بوحدانية الله تعالى ، وبطلان إلهية غيره .

وصارت القضية ساحة للجدل يدلي كل بما لديه من أدلة يراها قاطعـــة في محاولة لإفحام الآخر ، فادعى نمرود دليلاً هو أنه بإمكانه إحـــياء الموتـــى بالعفو عمن قضى عليه بالإعدام ولو واصل نبي الله إبراهيم ﷺ جداله في تلك القضية لأفحمه ، ولكنه أراد أن يضعه أمام دليل يعجز عن ادعاء مثله والإتيان بنظيره .

ونصـــب نبـــي الله دليلاً طلب منه الإتيان بمثله ﴿ **إن الله يأتي بالشـــمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ ، وهنا يعجز المدعي عن الرد ،ونصب أدلة على نحو ما أتى به نبي الله ﷺ ﴿ **فبُهِت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ .

وذات مـــرة أراد نبي الله إبراهيم ﷺ أن يقيم لذاته الأدلة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.. إنه يؤمن بها ويوقن بقدرة الله ﷻ ويجـــزم بقاهريـــته ، لكـــنه يريد نصب الأدلة ليزداد إيماناً واطمئناناً ويقيناً.

ويسأله الله تعالى سؤال تودد وإيناس – وهو أعلم بما يدور في خلَـــده – " أو لـــم تؤمـــن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي " وكان التوجيه الإلهـــي بـــأن يـــأخذ نبي الله إبراهيم أربعة من الطير ويجمعهن إليه ويذبحهن ويضع على كل جبل منهن جزءاً ، وما عليه إلا أن يدعوهن

وسيأتينه سعياً " **قال فخذ أربعةً من الطير فصُرهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعُهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم**" ودعا نبي الله ﷺ الطير فأتينه سعياً بإذن الله تعالى .

وذات يـــوم مر رجل على قرية كانت خاوية على عروشها .. فصـــارت أحلالاً بوائق ، يلفها الصمت ، ويطويها الفناء ، وهنا يقف مـــع نفسه وقفة يدفعه التأمل والنظر ، ويحاول استنطاق الواقع بالأدلة على كيفية إحياء الله تعالى هذه القرية بعد موتها بمن وما فيها ..

ويـــريد الله تعـــالى أن ينصـــب له الأدلة على ذلك ليعلم قدرته وقاهريـــته وهيمنته ، فأماته مائة عام ثم بعثه بعد الموت ، فسأله " **كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام** " .

والأدلة على قدرتي أني أمتك فتحللت عناصرك وصارت تراباً ثـــم أحييـــتك ، لكنـــي حفظت أشياء معك لم تتغير طبيعتها .. شرابك وطعـــامك ، وهذا حمارك قد مات فانظر إلى تلك العظام كيف نُنشِزُها ثـــم نكسوها لحماً .. (وهكذا أجرى الله الزمن على الحمار .. وأوقفه عـــن الطعام .. ولا يمكن أن يفعل الشئ وضده في نفس الوقت إلا الله سبحانه وتعالى الذي بيده مقاليد كل شئ) (١) .

وبنصب الأدلة من الله تعالى لهذا الرجل تبين وأيقن بقدرة الله

---

(١) القصص القرآني في سورة الكهف : فضيلة الشيخ الشعراوي (ص ١٥) مرجع سابق

تعـــالى ، وتصـــريفه شئون خلقه وتصييره للقضاء .. فثمة أمور يبقى طبيعـــتها .. وأمور يغير طبيعتها .. وأخرى يفنيها .. وثالثة يحييها .. ورابعة يميتها .. وخامسة يبقيها إلى أجل . سبحان الله القادر .

وفي هذه المواقف الفاصلة في تاريخ الاعتقاد قطع الدليل الشك وأحـــال الافتراض إلى يقين ، والظن إلى علم ، وأظهر شارات التوهم وفساد الادعاء ، وأثبت بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة أباطيـــل المغروريـــن وترهاتهم ، وزاد الموقن إيقاناً ، والمؤمن إيماناً ، فبثبوت الأدلة تثبت الأحكام ، وبوهنها توهن .

وإقامة الدليل قضية تفتقر إلى النظر الدقيق ، والتأمل الصادق ، والـــتجرد مـــن كل اعتقاد أو ميل ، أو نتيجة مسبقة ، [فكل واحد من طريق النظر والتجرد : طريق فيه منفعة عظيمة ، وفائدة جسيمة ، بل كل منها واجب لابد منه ، ولا تتم السعادة إلا به ، والقرآن الكريم كله يدعـــو إلى النظر والاعتبار والتفكر ، وإلى التزكية والزهد والعبادة ، وقـــد ذكر القرآن الكريم صلاح القوة النظرية العملية والقوة الإرادية العلمـــية منه قوله تعالى ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً** ﴾ (١) .

فالهدى كمال العلم ، ودين الحق كمال العمل .

---

(١) سورة الفتح (٢٨) .

وقول الرسول ﷺ (إن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد) [١] ، لكن النظر النافع أن يكون في دليل ، فإن النظر في غير دليل لا يفيد العلم بالمدلول عليه ، والدليل هو الموصل إلى المطلوب ، والمرشد إلى المقصود ، والدليل التام هو الرسالة والصنائع] [٢] .

(والقضايا التي يحرر مدلولها في عبارة تخاطب العقل لها وزنها العلمي ، ولكن لو أضيف إلى هذه العبارة صورة تطبيقية تعبر عنها ، فإن مدلول القضية يصبح أوقع في النفس ، وأنفع في مجال التطبيق والتنظير) [٣] .

وهكذا يتضح افتقار الدليل إلى القوة العلمية ، ويدخل النص فيها دخولاً أولياً ، والقوة الصنائعية (العملية) التي تعتمد على الإجراء والاستنباط والتطبيق والالتزام ، وبهذا يتحقق العلم النافع ، واليقين الجازم .

القائل بغير علم خائض بغير دليل :

لعلك تلحظ هذا المعنى بجلاء من خلال قول الله تعالى عن إجابة أهلُ النار أهلَ الجنة وقد تساءلوا عنهم ﴿ **ما سلككم في سقر** .

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣ / ٣٧١) ، صحيح مسلم ، ك الجمعة (٤٣).

(٢) توحيد الربوبية من مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢ / ٥٩) مرجع سابق .

(٣) بحث نحو منهج جديد لدراسة علم أصول الفقه نشر في حولية كلية الشريعة والقانون الدراسات الإسلامية جامعة قطر (ص ١٥٨) العدد (١٢) ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضـــين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [١] .

ولـــو دققت في معاني الآيات الكريمة ستجد أن السبب الرئيس فـــي انحرافهم أنهم كانوا يخوضون في إنكار الرسالة بدون دليل ، فلم ينشغلوا بنصب الأدلة على ما أنكروا ، ولا ما اعتقدوا ، فضلوا ، حتى جاءهم اليقين ، بما جاءتهم به دلالات الوحي الكريم في الدنيا ، ولات ساعة مندم !!

ومن الأدلة على ذلك أيضاً ما يلي :

قول الله تعالى :

﴿ أفـــلا يـــنظرون إلـــى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكِّر إنما أنت مذكِّر ... ﴾ [٢] .

وقـــال ﷻ **﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾** [٣] .

---

[١] سورة المدثر (٣٨ : ٤٨) .
[٢] سورة الغاشية (١٧ : ٢١) .
[٣] سورة يونس (١٠١) .

وقال تعالى ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ [١] .

وقال تعالى ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [٢] .

وقال تعالى ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ [٣] .

وقال تعالى ﴿ أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلاً ما تذكرون . أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أءله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمَّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا

---

[١] سورة المؤمنون (١١٧) .
[٢] سورة البقرة (١١١) .
[٣] سورة الأنبياء (٢٤) .

برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [١] .

وقال تعالى ﴿ **قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾** [٢]

وقال تعالى ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه نرفع درجات من نشاء**.....﴾ [٣] .

وثمة آيات كثيرة يمكن أن تؤصل بها هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية .

تأملات في هذه الآيات الكريمة :

لعل مما يبدو بوضوح من خلال تأملنا في هذه الآيات الكريمة ما يلي :

١ – نصبت الآيات الكريمات الدليل في معرض الإثبات والنفي وإقامة الحجة الدامغة على صدق قضايا الدعوة وإفحام خصومها .

٢ – توجهت الآيات الكريمات إلى المخالفين ، والمعارضين والمشركين ، والمنكرين ، بأن يأتوا بالدليل على صحة ما يدعون وإلزامهم عاقبة مآلهم ، وسوء منقلبهم إذا لم يقيموا تلك الأدلة " .. **فإنما حسابه عند ربه** " .

وطلب الاستدلال على صحة المعتقد هنا ليس على بابه وإنما

---

[١] سورة النمل (٦٠ – ٦٤) .
[٢] سورة الأنعام (١٤٩) .
[٣] سورة الأنعام (٨٣) .

علـــى سبيل التحدي والإعجاز والإلزام ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقيم الأدلـــة علـــى وجـــود إله غير الله تعالى " **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** " .

لكـــن يـــبقى لنا إقرار القيم الاستدلالية المتمثلة في طلب إقامة الدليل حتى مع المخالفين في الاعتقاد .

٣ – يســـتأثر الله تعـــالى لنفسه بإقامة الحجة البالغة على خلقه لإحاطة علمه تعالى ، وشموله " **قل فلله الحجة البالغة** " .

٤ – نصـــبت الآيات الأدلة من الواقع المشاهد ، فأبرزت آثار الصنعة الإلهية ، ووضحت قدرة الله تعالى وطلاقة تصرفه في كونه ، وجعلت من ذلك دليلاً واضحاً بيناً وبرهاناً قاطعاً .

٥ – عابـــت الآيات الكريمة على المنكرين والمعارضين عدم انتفاعهم بالأدلة المنصوبة في الكون لإثبات قضايا الدعوة والإيمان بها وبينـــت أن الإعراض عن الآيات ، والدلالات ، والحُجج ، والبراهين المنصـــوبة في الكون المنظور ، وكتاب الله تعالى المقروء ، وطمس معالمهـــا ، وتعمـــد إغفالهـــا وتجاهلهـــا ، إنما نشأ عن حجب العقول والتشـــويش على الفطرة ، وإعاقة بل وتعطيل وسائل الإدراك واتباع الهوى " **بل هُم قوم يَعدِلون** " .. " **بل أكثرُهم لا يعلمون** " .. " **قليلاً ما تذكَّـــرون** " .. " **وما تغني الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون** " .. " **بل أكثرُهم لا يعلمون الحقَّ فهُم معرضون** " .

علـــى أن الأمـــر بالنظر في الكون ينطوي على علاقة الدلالة المتحققة بين الناظر والمنظور (وهو ربط واضح بين الإيمان والعلم، فـــإذا لم ينظر الإنسان في السماء والأرض ويتفكر في روائع خلق الله ومـــا تضـــمه من حقائق علمية ، فلن تغني عنه الآيات والنذر ، ولن يصـــل إلـــى الإيمان الصحيح قط ، لأنك إنما تؤمن بالله لما ترى من بدائع صنعه ، ولم تصل إلى معرفة بدائع الخلق إلا إذا تأملت وفكرت لتتفتح أمامك مغاليق أسرار القوة في ذلك الكون الذي تعيش فيه)[١].

٦ – بينـــت الآيات الكريمة أن أي حكم عار من الدليل لا قيمة له ، وأن الأحكام الخاطئة لا تنشأ إلا عن تصور فاسد لطبيعة الأدلة .. وأن الحكـــم الصـــحيح لا يمكـــن أن يتخلف عن دليل صحيح ، وهذا يؤصـــل قـــيمة الدلـــيل في منهج الاستدلال ، لأنه إذا صح الاستدلال انحسم الخلاف ، وتحتمت قيم الثبوت وصحت التصورات ، واندحرت الترهات .

أهمية قاعدة ترتيب الحكم على الدليل :

تتمثل أهمية هذه القاعدة لمنهج الدعوة الاستدلالي فيما يلي :

١ – إنهـــا تجعـــل الداعي على ثقة بقضيته ، مما يجعله أكثر حرصاً على تبليغها وبيان طبيعتها والدفاع عنها .

---

(١) الإسلام في عشرين آية : د / حسين مؤنس (ص ١٩٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م .

وبـــدون الدليل لا يمكن أن يتحقق للداعي هذا الثبوت ، ولا تلك الثقة ، ولا يخفـــى مـــا لهذا من تأثير سلبي على قناعات المدعويين به ، ولا يخفـــى مـــا للدلـــيل من قيمة في معرض الإقناع والاقتناع ، وأول ما يطلب من الإنسان في دعواه الإتيان بالدليل .

٢ – إنهـــا تؤكد خصيصة من خصائص الدعوة الإسلامية من حيث كونها دعوة مبرهنة ، ليست عارية من الأدلة ، بل إنها تقـــــدم الدلـــيل بيـــن يدي القضية لضمان قبولها ، وتحقيق إيمانهم بها ، مما يجعـــل قضـــاياها محل قبول لا رفض ، وأخذ لا رد ، إذ ما خلصت العقول ، وتلاشت المعوقات .

٣ – أن مراعاة هذه القاعدة يمكّن الداعي من نصب الأدلة بما يـــتفق ومعطـــيات العقـــل ومبادئه ، وإقامة الحجج القاطعة والبراهين الثابتة ، والأدلة الظاهرة مع مراعاة مستويات إدراك المدعو .

٤ – ولا يخفى ما لهذا أو ذاك من أثر بالغ على ثبات الإنسان على القيم والمبادئ والفضيلة ، وثباته على الحق والعدل .

المبحث الخامس

اعتماد الأدلة اليقينية لا الظنية

اليقين الذي نقصده :

يعد اعتماد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم على الأدلة اليقينية لا الظنية واحدة من روائع قواعد المنهج الاستدلالي في معرض عرض القضايا الدعوية ، وبيانها وتوضيحها ، وإثباتها على نحو من اليقين .

وهذه القاعدة تنسجم مع التفكير السديد ، والنظر العقلي السليم ، ذلك أن العقل يقضي بأن العلم لا يأتي إلا باليقين، وأن الظن والخرص والتوهم والافتراض ، والطرح العاري من اليقين بوجه عام من المستحيل أن يوصلنا إلى معلومات يقينية .

الظن الذي نعنيه :

على أننا لا نقصد بالظن هنا الاحتمال ، فهذا أمر تحتمله بعض نصوص الشريعة [١] وإنما نقصد به الحكم بغير علم .

فالظن بهذا المعنى لا ينتج عنه إلا ظن مثله ، والوهم لا يترتب عليه إلا وهم ، والخرص أو الحدس لا يترتب عليهما إلا خرص أو حدس ، والافتراض معلومات احتمالية قد تثبت ، وقد لا تثبت . كما

---

[١] علم أصول الفقه : عبد الوهاب خلاف (ص ٣٤) وما بعدها ، مرجع سابق ، وقد سبق توضيح ذلك في بيان طبيعة الأدلة القرآنية (تراوح الدلالة القرآنية بين القطعية والظنية) .

أنـــه قـــد لا يســـعفها الواقـــع في الثبوت ..إذ أنه ينضب من الرؤى والتصـــورات التـــي تؤكـــد الافتراض ، بل ربما ينطق بما يناقضه ، وعلـــى كلٍ فليس من بين ذلك كله ما يرقى إلى الدليل ، لأنها مصادر تـــندفع بـــالهوى ، وتـــتأثر بالبيئة ، وهي مظنة خطأ محقق ، إذ أنها لا تعتصم بمعارف الوحي ، ولا تستمد من الواقع ما يؤكد صدقها ، أو يدلل على حقيقتها .

أضـــف إلى ذلك أن نتائجها محل شك مطلق ، من ثم فلا يمكن الوثـــوق بهـــا ، ولا يخفـــى ما لذلك من آثار خطيرة في مجال إثبات العقـــائد ، ووضـــع قواعـــد الأخـــلاق والنظم الاجتماعية ، وأصول الاقتصاد ومبادئ السياسة .

والظـــن والخـــرص نتاج عقل محض من حيث طبيعته وكنهه وماهيـــته ، بل إنه نتاج عقل عار من الدليل الصحيح ، هذا فضلاً عن أن العقل ولو مارس دوره الإدراكي بدقة فهو محدود الإدراك .

مـــن ثم يكون مظنة الخطأ ، وبالتالي فهو يفتقر إلى من يصحح لـــه خطـــأه ، وخاصة فيما لا يمكن أن يقع تحت دائرة إدراكه وليس بالضرورة أن ما يدرك عن طريق الحواس يكون موضع قبول مطلق أو تصـــديق مطلـــق ، وإنمـــا يكـــون موضعاً للأخذ والرد ، والقبول والرفض .

وقضـــايا الدين لا يمكن أن تثبت بالظن ، أو بأدلة احتمالية أو بأفكـــار عقلـــية ، حـــتى لـــو كانت مقترنة بأدلة ، إذ العقل لا يستقل باستصـــدار مـــثل هـــذه الأحكام ، ولا يرقى إلى درجة وضع أصول وقواعد دينية عقدية أو تشريعية ، لأن نتائجه قد تتناقض مع ذاتها في ذات الوقـــت أو في أوقات متغايرة ، طبقاً لما تمليه الظروف ، وتغير أسباب استصدار الأحكام .

وهـــذا ســـر تغيـــير القوانين الوضعية من آن لآن ، ومن بيئة لأخـــرى ، لأنهـــا تمخضت عن رؤية غير متكاملة ، ومصدرها غير معصوم ، وورود الخطأ فيه قائم إن لم يكن محتماً .

على أن العقل إن صفا إدراكه ، واستقامت مداركه ، وضبطت وسائله اتفق مع صريح المنقول .

ومـــن ثم نجد القرآن الكريم ينعي على المتحاكمين إلى العقل ، الرافضـــين للدين ، المنكرين للرسالات ، ذاك الاتجاه العقدي الفاسد ، بـــل ويـــنكره عليهم ، ويتوعدهم على ذلك أشد الوعيد ، لأنهم عطلوا وسائل الإدراك ، ولم يستجيبوا لداعي الله، ولا لنداء الحق ، وأخضعوا الديـــن لتصـــوراتهم وآرائهم ، وأبوا إلا أن يحكمهم النزوع ، وتدفعهم الأهواء !!!

تأصيل قاعدة اعتماد الأدلة اليقينية لا الظنية :

إذا تأملنا القرآن الكريم نجده مترعاً بالشواهد التي تدل على أنه اعتمد في منهجه الدعوي الاستدلالي ، وخاصة في مجال إثبات العقائد وأصول الشرائع ، على الأدلة اليقينية التي تفيد القطع والثبوت ، ولا يتطرق إليها شك أو احتمال .

ومن هذه الآيات ما يلي :

قال تعالى :

١ - **﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون . أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمَرُوها أكثر مما عمَرُوها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ... ﴾** [١] .

٢ - وقال تعالى **﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يَكْفِ بربك أنه على كل شئ شهيد ﴾** [٢]

٣ - وقال سبحانه **﴿ إنه ظن ألن يحور . بلى إن ربه كان به**

---

[١] سورة الروم (٨ ، ٩) .
[٢] سورة فصلت (٥٣) .

بصيراً ﴾ [١] .

٤ - وقال تعالى ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . فذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [٢] .

٥ - وقال تعالى ﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم ألن يبعث الله أحداً ﴾ [٣] .

٦ - وقال تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ [٤] .

٧ - وقال تعالى ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [٥] .

---

[١] سورة الانشقاق (١٤) .
[٢] سورة فصلت (٢٢ ، ٢٣) .
[٣] سورة الجن (٧) .
[٤] سورة القصص (٣٩) .
[٥] سورة الحشر (٢) .

٨- وقـــال تعالى ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبـــيد هـــذه أبـــداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ [١] .

٩ - وقـــال تعـــالى ﴿ وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى علـــيكم فاســـتكبرتم وكنتم قوماً مجرمين . وإذا قيل إن وعد الله حق والســـاعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [٢] .

١٠ - وقـــال تعالى ﴿ ومنهم [٣] أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم إلا يظنون ﴾ [٤] .

١١ - وقـــال تعالى ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ [٥] .

١٢ - وقال تعالى ﴿ .. وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ [٦] .

---

[١] سورة الكهف (٣٥ ، ٣٦) .
[٢] سورة الجاثية (٣٢) .
[٣] الضمير يرجع إلى اليهود في السياق السابق .
[٤] سورة البقرة (٧٨) .
[٥] سورة الأنعام (١١٦) .
[٦] سورة الأنعام (١١٩) .

١٣ - وقال تعالى ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ . كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ (١) .

١٤ - وقال تعالى ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ﴾ (٢) .

١٥ - وقال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون . وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ (٣) .

١٦ - وقال تعالى ﴿ ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ (٤) .

١٧ - وقال تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما

---

(١) سورة الأنعام (١٤٨) .
(٢) سورة يونس (٣٦) .
(٣) سورة الجاثية (٢٣ ، ٢٤) .
(٤) سورة يونس (٦٦) .

باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ [١] .

١٨ – وقـــال تعـــالى ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحـــياة الدنـــيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾** [٢] .

دلالات التأصيل :

إذا تأملنا هذه الآيات نجد ما يلي :

(١) إن القرآن الكريم ركز في منهجه الدعوي الاستدلالي على ضـــرورة الاعـــتماد على الأدلة اليقينية التي تفيد القطع والثبوت ، لا علـــى الظـــن الذي يفيد التوهم ، ويقوم على محض افتراض ، وهذا مدلـــول قـــول الله تعالى : ﴿ **قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتـــبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾** ، وقوله تعالى ﴿ **وما لـهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ﴾** .

(٢) اســـتنطق القـــرآن الكـــريم الواقع بالأدلة اليقينية ، ولفت الأنظـــار إلى ضرورة البحث والتحري عن طريق التأمل والتفكر في آيات الخلق التي لا تقبل دلالتها شكاً أو احتمالاً ، فهذه آيات الله تعالى

---

[١] سورة ص (٢٧) .

[٢] سورة النجم (٢٧ – ٣٠) .

في النفس الإنسانية ، وتلك آياته تعالى في كونه ، وهذه وتلك تنسجمان انسجاماً كاملاً مع العقل ، وبهما يتحقق العلم ، وينقطع الوهم ، ويتداعى الظن ، ويزول الخرص ، وتدحض الحجج الواهية ، إذ أنها تتناقض مع الواقع ، ولا تثبت أمام العقل الصحيح ، والنظر الثاقب ،

وهذا مدلول قول الله تعالى ﴿ **أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ... أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ .

(٣) بين القرآن الكريم بطلان العقائد والرؤى والتصورات التي قامت أو التي من الممكن أن يقيمها المغرضون المدعون على أساس الظن والخرص كعقائد الدهريين الذين قالوا " إنما نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر " وكانت مقولتهم في الخلق وإنكار البعث " إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع " ! ، وذاك الذي ظن أن الساعة لا تقوم ، " **وما أظن الساعة قائمة** " وغرره الوهم " **ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً** " ، وأولئك الذين ظنوا أن حصونهم ستمنعهم من إيقاع الله تعالى العذاب بهم ، وهو مدلول قوله تعالى " **وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله " ولم يغن عنهم ظنهم من الله شيئاً" فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب** " .

وذلكم الذين فسدت تصوراتهم حين ارتكبوا المعاصي ، وظنوا ألا شاهد عليهم وأن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون .

وهـذا مدلول قوله تعالى " **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملـون** " فـأرداهم سوء ظنهم بالله تعالى " **فذالكم ظنكم الذي ظننتم بـربكم أرداكـم فأصـبحتم من الخاسرين** " واستحقوا لعنة الله وساء مصـيرهم " **فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المُعتَبين** " .

(٤) وركز القرآن الكريم على أن العلم والظن نقيضان لا يمكن أن يجتمعا ، وأن الظن لا يمكن أن يثمر علماً أو يدل عليه ، وأن العلم لا يمكن أن يتمخض عن ظن ، وأن الظن لا يقوم مقام الحق ولا يغني عنه شيئاً ، وهذا مدلول قول الله تعالى " وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً " .

(٥) بيـن القرآن الكريم عوامل النزوع إلى الظن من حيث أنه يـنطلق من هوى محض ، وتعطيل لوسائل الإدراك ، وتعمية العقل ، وخداع النفس ، وتضليل القلب ، وتشويش الفطرة ، بل إن الذين اتبعوا الظن طريقة لإثبات عقائدهم ورؤاهم وتصوراتهم الفاسدة **ألّهوا** هواهم وعبدوه من دون الله تعالى .

وأمثال هؤلاء يخالفون الأصول المعرفية التي قرر الإسلام بها الوحي [١] الإلهي ، والتي تعتمد - كما يرى بعض العلماء والباحثين

---

[١] ويدخل في ذلك السنة الشريفة باعتبارها وحياً من حيث المعنى .

على ما يلي :

(١ – العلم العقلي المبني على الدليل والبرهان .

٢ – العلم الفطري المركوز في طبائع الناس كافة .

٣ – الوحـــي الإلهـــي الداعي إلى الدين والإيمان بالمثل والقيم الحضارية) [١] .

وهذه الأصول هي التي ينضبط بها الإدراك والتفكير ، ويستقيم بها الاعتقاد والسلوك ، وتُرسي في ضوئها القيم والمبادئ والأخلاقيات ويصل بها العقل المعرفي إلى اليقين .

ولا غرو فالهوى يفسد في الحياة كل صالح ، ويقبح فيها كل جميل ..

وباتـــت آراء هـــؤلاء وعقـــائدهم مجرد دعوى كاذبة وافتراء محـــض ، لـــم يقـــم على أساس من العلم ، ولم يسعفها من الواقع ولا العقل دليل ، فضلوا وأضلوا ، وهذا مدلول قول الله تعالى " **وإن كثيراً ليضـــلون بـــأهوائهم بغـــير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين** " وقوله سبحانه " **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على ســـمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ".

---

(١) أبعاد التكوين العقلي للفرد في الإسلام : كارم غنيم (ص ٣٥) ومات بعدها دار الصحوة للنشر ١٤٠٩هـ ، وراجع تكوين العقل العربي : محمد الجابر (ص ٣٧) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٨ وفيه تفصيلات تؤكد ما ذكرناه ، ومقارنات بين العقل العربي والعقل اليوناني في نظرتهما لأصول المعرفة .

المبحث السادس

المقابلة والتمييز

من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم " **المقابلة والتمييز** " ، ولهذه القاعدة قيمتها العظيمة في ميادين العمل الدعوي ، فهي تجسم للمدعو بصدق وجدية طبيعة المتقابلات والمتناقضات والمتضادات ، والتي ينبغي أن تكون لها صور فاصلة في العقول بحيث لا يحدث هنا قفز فوق الأسوار والفواصل والحدود القائمة بين هذه المتقابلات ، فينشأ عن ذلك خبط أو لبس أو خلط ، وبين هذا وذاك تضيع معالم الحقيقة ، وتصير الصورة قاتمة تماماً لا يستطيع العقل التمييز بين عناصرها بتأثير عوامل التشويش .

وتأتي هذه القاعدة المنهجية لتبرز قيم الحق والصدق والعدل والخير والجمال ، وتجعلها ماثلة في ذهن المدعو في حين تكشف له دعاوى الباطل ، وآفات الكذب ، وقبائح الظلم ، وعواقب الشر ، وقبح القبح .

وليس على المدعو بعد ذلك إلا أن يقف بين هذه الحدود والفواصل لينظر عن يمينه تلك القيم والمثل والمبادئ العادلة ، وعن يساره تلك القيم المرذولة ، ويتجرد من عوامل التأثير البيئي والعقدي والاجتماعي ، ليفصل هو بين هذه المتقابلات في الحكم برويَّة وعقلانية .. أيهما ينبغي اتباعه ، وأيهما ينبغي إقصاؤه من الحياة ،

وتنحيـــته عن تدنيس آفاق الوجود ، وتشويش الفطرة ، وتعكير صفو الحياة .

وليحكم هو في هذه القضايا المتقابلة : النور أم الظلمة .. الجمال أم القبح .. الطمأنينة أم القلق والتوتر .. الخير أم الشر .. الفضيلة أم الرذيلة .. الانضباط أم التسيب .. الحرية أم عبودية الهـوى .. الهداية أم الضلال .. الغواية أم الرشاد ؟! ثم يقيس على ذلك الإيمان والكفر.

وهكـــذا يعـــتمد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم من خـــلال هذه القاعدة على طرح هذه المتقابلات بكل حدودها وفواصلها أمام القسمة العقلية السديدة للموازنة والتمييز .

علماً بأن معطيات هذه القسمة تعطي لنا قناعات ذاتية غاية في العقلانـــية تتفق مع قول الحكماء : " **وبضدها تتميز الأشياء** " ، وبناء علـــى الحكمـــة الراشـــدة : " **لا يعرف الإيمان من لم يعرف الكفر**" ، والحكمـــة القائلة:" الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يشعر بها إلا المرضى"

وبالقـــياس أقـــول : لا يعرف لذة العطاء إلا من تجرع مرارة الحـــرمان ، ولا يعـــرف قـــيمة البصر إلا من أبصر بعد عمى ، ولا يعرف قيمة السمع إلا من سمع بعد صمم ، ولا يعرف نعمة الإبانة إلا من نطق بعد بكم .

وهـذا ما تقتضيه القسمة العقلية الصادقة ، والحكمة الرشيدة ، حيـث إن تميـيز الأشـياء بضدها واضح الدلالة ، كامل الإبانة على مخالفـة النقـيض وتمايـزه من حيث الجوهر والمظهر ، ومن حيث دلالاته الكائنة في ذاته ، ودلالاته البارزة في مظاهره .

والعقـل لا يصعب عليه التمييز بين هذه الجواهر والظواهر ، ولا يعييه حسم أوجه التناقض والاختلافات بينها .

فلقـد (منَّ الله تعالى على العباد بعقول فدلهم على الفرق بين المؤتلـف والمخـتلف ، وهداهم إلى سبيل الحق نصاً ودلالة .. وكان عليهم تكلف الدلالات بما خلق لهم من العقول التي ركبها فيهم) [١] .

وهـذا مبني على افتراض صحة العقل وسلامة النظر ، وتهيئة الأجـواء والظـروف المناسـبة له لضـمان صحة الفصل بين هذه المـتقابلات .. وإذا مـا تجرد من الهوى والزيغ والبهتان والافتراء ، ومن عدم الانصياع لوجه الحق الظاهر فيها .

أما إذا لم يتجرد من ذلك فلن يصل إلى فصل واضح ، ولا إلى تفريق بين المتناقضات ، ولا إلى حكم صحيح فيها ، وبالتالي تتيه عنه معالم الحـق ، ودلالات اليقيـن ، فيضـمحل ويتلاشى ، ويضيع بين أناس من المفترض أنهم عقـلاء .. ولكن قلوبهـم طويت على مـرض ،

---

[١] الرسالة للإمام الشافعي : تحقيق أحمد شاكر (ص ٥٠١ ـ ٥٠٢) مطبعة مصطفى البابي الحلبي . بدون تاريخ .

وعقولهم تقاصرت عن التجرد ، وأبت إلا التبعية ، ورفضت الاستقلالية بالحق !!

تأصيل هذه القاعدة :

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القضية وبين الأسباب والدوافع التي تدفع بعض العقول إلى الفصل بموضوعية بين تلك المتقابلات ، وتلك التي تدفع البعض الآخر إلى الإنكار والتمرد ، أو الإعراض واتباع الهوى .

فالقرآن إذن شخّص الداء ، ووضح العلل ، وبين العلاج ، وعلى الإنسان أن يستعين بهذا المنهج الاستدلالي الرائع في القرآن في الحكم بين هذه القضايا ، والفصل بينها فصلاً يريح العقل ولا يعييه ، ويهديه ولا يشقيه .

ومن أدلة ذلك قوله تعالى :

١ - **﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾** [١] .

---

[١] سورة البقرة (٢٥٥ ، ٢٥٦) .

٢ – وقولـــه تعالى ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير . قد جاءكـم مـن الله نـور وكـتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السـلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ (١) .

٣ – وقولـه تعالى ﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ (٢) .

٤ – وقولـه تعالى ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشـي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ (٣) .

٥ – وقولـه تعالى ﴿ **الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . صراط الله الـذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد** ﴾ (٤) .

٦ – وقولـــه تعـالى ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل**

---

(١) سورة المائدة (١٥ ، ١٦) .
(٢) سورة الأنعام (١) .
(٣) سورة الأنعام (١٢٢) .
(٤) سورة إبراهيم (١ ، ٢) .

صبار شكور ﴾ [١] .

٧ – وقوله تعالى ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ [٢] .

٨ – وقولـه تعالى ﴿ قـل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ [٣] .

٩ – وقوله تعالى ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [٤] .

١٠ – وقولـــه سبحانه ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [٥] .

١١ – وقولـــه تعـالى ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ [٦] .

١٢ – وقولـــه ﷻ ﴿ ومـا يسـتوي الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الأحياء ولا

---

[١] سورة إبراهيم (٥) .
[٢] سورة الأحزاب (٤٣) .
[٣] سورة الرعد (١٦) .
[٤] سورة فصلت (٣٤) .
[٥] سورة السجدة (١٨) .
[٦] سورة المائدة (١٠٠) .

الأمـــوات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير ﴾ (١) .

١٣ – وقولـــــه تعالى ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ (٢) .

١٤ – وقولـــــه تعالى ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾ (٣) .

١٥ – وقولـــه ﷻ ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ (٤) .

١٦ – وقولـــــه ســبحانه ﴿ مـــثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكّرون ﴾ (٥) .

١٧ – وقولـــــه تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (٦) .

---

(١) سورة فاطر (١٩ – ٢٢).
(٢) سورة الزمر (٩).
(٣) سورة غافر (٥٨).
(٤) سورة الحشر (٢٠).
(٥) سورة هود (٢٤).
(٦) سورة الجاثية (٢١).

دلالات التأصيل :

١ – حكمة التمييز بالنقيض :

يبدو مما سبق روعة منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم إذ يعتمد في نصب الأدلة على حكمة التمييز بالنقيض ، ولا يخفى ما لذلك من دلالات تفيد القطع ، وتقطع الوهم ، وتخرج الإنسان من ظلمات الاعتقاد ، إلى صحيح الإيمان ، ومن انحرافات الأديان [١] إلى صحيح الإسلام .

فالعاقل عندما يتجرد للحق يستطيع أن يميز بين الخبيث والطيب ، والحسن والسوء ، والموت والحياة [٢] ، وبين من يميز ما على الأرض ويفقه الأسرار في آفاق الكون ، ومن تطويه القبور .. ومن تدفعه الآمال ، ومن تعييه الحِيَل .

٢ – البينية الراشدة :

إن هذه " **البينية** " الراشدة بين الأشياء هي التي تبرز قيم الفواصل ودقة الحدود ، كما تميز قيم المدركات في العقول ، ومهايا الطبائع من حيث الجد والهزل .

فهي " **بينية** " لا تسمح بذوبان المتقابلات وانصهارها وتلاشي الفواصل بينها ، فضلاً عن أنها لا تسمح باختلاطها أو التباسها .

---

(١) بفعل التحريف والوضع .

(٢) أقصد موت القلوب وحياتها ، وهو المعنى الواضح في الآيات الكريمات .

إنها إذن تحافظ على " **البعد البيني** " ليبقى معرباً عن الاختلاف والتضـــاد ، ولتـــبقى المســـاحة الفاصـــلة بين هذا أو ذاك شاغرة من محدثـــات الـــتمويه والتعتيم ، ممتلئة بالضوابط والقيود والشروط التي ترسخ معاني الفواصل ، وتبرز قيم الحدود .

فمن تجرد عقله من الهوى ، وانتصر على المعوقات الإدراكية يســـتقل بذاتيته في هذا البعد البيني ، مما يؤهله للفصل في الحكم بين هذه المتقابلات .

أمـــا مـــن لم يتجرد من ذلك ، ولم يتحر الدقة والإنصاف حتماً ســـيتيه فـــي هذا " البعد البيني " ، وتختلط عليه فيه طبيعة المتضادات وتتـــيه منه علامات التناقض ، فيكون كمن يحاول رؤية الأشياء خلف ضباب كثيف ، أو من يميز بين خيطين أبيض وأسود في ظلام الليل.

ومن ثم لا يستطيع التمييز بين الحق والباطل ، ولا بين الخبيث والطيـــب ، ولا بيـــن الخـــير والشر ، بل ربما يرى هذه المتقابلات معكوســـة مـــن حيـــث طبيعتها ، فيرى الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والمعـــروف مـــنكراً والمـــنكر معـــروفاً، والخير شراً والشر خيراً ، والخبيث طيباً والطيب خبيثاً !! وهكذا دواليك !!!

ومـــن كانـــت تلك حاله سلبت منه مقومات التمييز ، إذ لم يعد يستشعر الفروق بين المتقبلات ، وصار أعمى عن بصر، وميتاً عـــن

حـــياة [١] ، فهو وإن لم يُعْم حقيقة ، إلا أنه صار كالأعمى ، وإن لم يمت إلا أنه نُزِّل منزلة من مات .

وهذا مدلول قوله تعالى السابق : " **وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمـــات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الأحياء والأموات . إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور**".

ومدلـــول قولـــــه ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهـــم قلـــوب لا يفقهـــون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[٢] .

ومدلـــول قولـــــه ﷻ ﴿ **وإن تدعوهـــم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** ﴾ [٣] .

لعلـــه قد اتضح مما سبق قيمة قاعدة " المقابلة والتمييز " لمنهج الدعـــوة الاستدلالي في القرآن من حيث عرضها الحقائق بموضوعية وحـــيادية أمام المدعو ، ليفصل في الحكم عن بصيرة ، وليقرر بذاته – وعـــن طواعـــية وحـــرية واختيار– قراره بعيداً عن الضغوط أو المعوقات .

---

[١] تفسير الرازي (٢٦ / ١٥٠) مرجع سابق .

[٢] سورة الأعراف (١٧٩) .

[٣] سورة الأعراف (١٩٣) .

المبحث السابع

قاعدة الهدم والبناء

مـــن قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم قاعدة : " **الهـــدم والبـــناء** " وأقصد بها : هدم الأفكار المضطربة والمختلة ، والتصـــورات القاصرة والفاسدة ، والعقائد الباطلة والمنحرفة ، والنظم الاجتماعـــية البالـــية الجائرة ، ونظم السياسات الاستبدادية التي تستذل رقـــاب العـــباد ، وتلـــوي الأعناق ، وتسُوس الناس بالحديد والنار ، وتدفعهـــم إلـــى مصير يجهلونه أو يتجاهلونه ، ومحاربة صور العنف والـــتطرف والإرهـــاب ، التي سادت المجتمعات الجاهلية قبل مجيء الإسلام .

ثـــم تأسس لبناء وتأصيل العقائد الصحيحة ، والنظم المنضبطة والتشريعات السديدة ، وتنمية الوعي الفكري والثقافي، وضبط التصور الإدراكـــي لـــدى البشر بمختلف أجناسهم ، وألوانهم وألسنتهم في أي مجـــتمع ، وفـــي كـــل موضع قدم على ظهر الأرض ، مما من شأنه الحفاظ على الكيان النفسي والاجتماعي والتركيبة البشرية بوجه عام .

منهجية القرآن الكريم في الهدم والبناء :

وقد اعتمد القرآن الكريم في ذلك منهجية قيمة تعتمد على ما يلي :

أ – منهجية التطهير .

ب – منهجية الإحلال والتأسيس .

أولاً : منهجية التطهير :

أما منهجية التطهير التي اعتمدها القرآن الكريم ، وهي الإزالة الكاملة لكل صور الانحراف العقدي والبغي والظلم الاجتماعي ، والمادية الطاغية ، والفلسفات النزاعة إلى الإباحية ، ومظاهر وطقوس الروحانيات الغالية والمتطرفة .

إنها إزالة لا تُبقِي أثراً لفاسد أو منحرف ، ولا تترك له موضع قدم يقف عليها ذات يوم في مستقبل الإنسانية وليشرئب ويطل برأسه الخبيثة ليجعل منها منازعاً لقيم الحق والصدق والعدل والجمال والخير.

وهذه المنهجية الرشيدة تتفق مع الواقع وتتفاعل مع العقل ، وتنسجم مع الفطر السليمة ، والنيات الحسنة .

ومما يؤكد هذا الحكمة القائلة " **العضو الفاسد يجب بتره** " ، فإذا فسد عضو في جسد ما فساداً يؤدي إلى استشراء المرض في سائر أعضاء الجسد فيجب استئصاله حفاظاً على الجسد ، والتقصير في ذلك جريمة يعاقب عليها الشرع الحنيف ، والعقل السليم ، والعرف المنضبط .

وأعتقد أن منهجية الطب في القديم والحديث كانت تعتمد تلك الحكمة الراشدة في المعالجة ، وهذا ما يبدو واضحاً في استئصال الأعضاء الفاسدة التي قد تنشأ عن مرض السكر ، وكذا استئصال الخلايا السرطانية من الجسد حتى لا تستشري فيه وتفتك به ، وترك

هذه الخلايا أو الأجزاء العطبة يهدد بقاء الإنسان على الأقــل صحيحاً سليماً معافاً إن لم يودي به إلى المرض الساحق والهلاك الماحق .

ولا أعتقد أن عاقلاً يعترض على هذا ، والعاطفة ليس لها دور هنا ، والرحمة تكون في مثل تلك الحالات في بتر تلك الأعضاء لا في بقائها .

ولم يقف الحد – عقلاً – عند مجرد المعالجة ، وإنما يسبق ذلك خطوات يطلق عليها " **الإجراءات الوقائية** " من الأمراض كالبعد عن الأماكــن الموبوءة (مظنة العدوى) وتجنب المرضى بأمراض معدية كأمــثال مرضــى الإيــدز ، قياســاً على الأمراض التناسلية المعدية كالزهري وغيره ، فلا يتزوج رجل بامرأة مصابة بالإيدز ولا العكس، بــل إن المــتحقق من إصابة أحد الزوجين بذلك المرض بعد الزواج يوجــب التفريق بين الزوجين ، إذ أن استمرار الحياة الزوجية في ظل تلك الحالات نذير خطر يتهدد الأسرة بكاملها .

فــالعقل يقتضــي أن الــرحمة ظاهــرة في التفريق بين هذين الزوجيــن ، أو النهــي عن الزواج ممن أصيب بهذا المرض ابتداء ، ويقتضــي أن الضرر ظاهر في " الإبقاء " كما في الحالة الأولى ، أو " الإقدام " كما في الحالة الثانية .

ولم تقتصر الحكمة العقلية في التطهير على التطبيب بإزالة عضو أو نحوه ، بل تعدت ذلك إلى مجال الدراسات والإنشاءات المعماريــة

ومـــا فـــي حكمها ، حيث يكون تسوية الأرض التي تقام عليها المنشأة وتمهـــيدها بإزالة ما كان بها من آثار سابقة ، من شأنها إعاقة المنشأ الجديد ، إلى جانب دراسة التربة التي يقام عليها هذا المنشأ والاستعانة بعلـــم الجيولوجـــيا فـــي هذا الصدد ، إذ ينبني على هذا تقييم سياسة الإنشاء من تقدير مواد البناء والتسليح والميزانية وغير ذلك مما يتعلق بهـــذه العملـــية ، وبعد ذلك – وليس قبله – يتم وضع اللبنات الأولى للمشروع ، وهكذا .

وكذلـــك الحال في الزراعة حيث تقتضي الحكمة العقلية إزالة كل المعوقات التي تعوق النبات أو ترهقه ، وهذا يقتضي دراسة نوعية الـــتربة ، وتســـويتها ومعرفة نسبة الملوحة بها والقضاء عليها لجعل التربة قادرة على الاحتضان ، ثم النظر إلى العوامل البيئية ، والمناخ لتهيـــئة الجو المناسب للإنبات والنمو والتكاثر ، وإلا فلن يكون هناك بارقة أمل في الإنبات وتعمير الأرض بالزراعة .

فـــالأرض الطيـــبة تنبت نبتة طيبة ، ويستطيع الإنسان أن ينعم بخـــيراتها ، أمـــا الأرض الخبيثة التي لم تنبت من المستحيل أن تكون رحماً لنبات ما لم تؤهّل أو تهيأ لذلك .

إذن فالحكمـــة العقلـــية تقتضي تأصيل مبدأ التطهير قبل البناء والـــزراعة ، وأن أي بناء لم يقم على هذا الأساس سرعان ما ينهدم ، ولم يقف هذا عند حد المحسوسات أو الماديات فقط ، وإنما يتعدى ذلك

إلى مجال الأفكار والمعتقدات والمعنويات بوجه عام .

ففـــي مجـــال الأفكـــار تقتضي الحكمة العقلية التجرد من كل العوامـــل المؤثـــرة في الحكم ، ومما يشوب الرؤى والأفكار ، ويتجه بالتصـــورات نحـــو السلب لا الإيجاب ، ولابد من هذا التجريد لتهيئة العقـــل لإمكانـــية قـــبول أفكار مغايرة ، وتهيئة القلب للاعتقاد بعقائد صحيحة .. وإلا فإن إمكانية التلقي تكون منعدمة وسيبقى العقل يوسع من دائرة معتقداته القديمة ، حتى يضيق دائرة تلك المعتقدات والأفكار المطـــروحة والمثارة أمامه ليفصل في حكمها ، وتتطلب منه ضرورة الخروج بنتيجة .

والحكمـــة قائلة : (**كل إناء مشغول بما يملأ فراغه**) فلن يقبل إناء من إناء شيئاً إلا إذا أفرغ ما به .

مـــن ثـــم ندرك خطورة المؤثرات الفكرية البيئية ، والتعصب للأفكـــار والعقـــائد البالية ، وتلقف الأفكار الجديدة ، والعقائد المغايرة بالـــرفض .. فقـــد ضيقت تلك العوامل مساحة وجودها ، بل حاولت وأدهـــا دون أن تحاول تصورها ، فأوصدت أمامها كل نافذة يمكن أن يتســـلل منها إلى العقل وسيلة إقناع جادة هروباً من الاعتراف بالحقيقة لكن ذلك أعياها ، وبقيت قيمة الحق راسخة .

بـــيد أن هـــناك عقـــولاً أفرغت ما بها من أفكار وموروثات ، وتجردت للحق ، وتمحضت للصدق ، وأزالت كل معوقات التصـــور

الصـــحيح ، وموانـــع الحكم الرشيد ، فأدى ذلك بها إلى نتائج إيجابية حيـــث أدركـــت قـــيمة الحق ، واهتدت إليه ، فغيرت به مصيرها ، وعدلـــت مـــن مناهج تفكيرها ، حتى بلغت من الرشاد مبلغاً كان من المستحيل بلوغه دون أن تتجرد من ذلك .

التطهير قسمة عقلية كلية لا تقبل التجزئة :

تقتضي الحكمة العقلية أن يكون التطهير كلياً لا جزئياً ، إذا ما أراد العقـــل حـــلاً جذرياً لمشكلة ما ، فالعقل الرشيد لا يقبل أنصاف الحلـــول ، لأنها تكون بمثابة " قنابل موقوتة " تنسف القديم الكائن فيه والجديـــد مـــن الأفكار معاً ، أو تنسف الجديد منها فقط ، وتبقي على القديم البالي الموروث ، وهنا ترجع العقول إلى درجة (الصفر) مرة أخـــرى ، تضرب بعرض الحائط كل وسيلة إقناع ، لأنها قبلت تجزئة المعقولات من العقائد الصحيحة والأفكار الرشيدة ، والشرائع القويمة ، فلـــم تصل إلى حق كامل مجرد ، وإنما إلى أنصاف حقوق ، وهذه قيم واهية تضل ولا تهدي ، فهي لا تغني من الحق شيئاً .

ولا يمكن الإبقاء على نصف ما بالإناء من ملح أجاج أو ما يقل أو يزيد ، إذا ما أردت أن أملأه لأشرب ماءاً عذباً ذلالاً .

كذلك لا يمكن الإبقاء على نصف ما بالعقل من أفكار خاطئة أو ما يقل أو يزيد إذا ما أردت البحث عن أفكار صحيحة ، إذ لا يستوي الخبيث والطيب.

فلابـــد إذن من إفراغ العقل تماماً من كل مقدمة فاسدة لضمان نـــتائج صـــحيحة ، ذلك أن قيم العدل والحق لا يمكن أن تجزأ ، ففي تجزئـــتها مضـــيعة لهـــا ، والإنسان لا يمكن أن يطلق عليه أنه عادل فـــي حكمـــه بنسبة (٩ر٩٩ %) ، لأنه يجب أن يتحرى ذلك بنسبـــة (١٠٠×١٠٠) فـــتجزئة العدل إلى نسب النصف أو الربع أو الثلث أو ما يزيد أو يقل عن ذلك واقع غير منضبط .

وهذا مقتضى الحكمة العقلية القائلة (**نصف الحق كل الباطل**) ذلك أنه إذا حكم لإنسان في خصومة ما بنصف حقه فقط ، فقد أضيع منه النصف الآخر ، وفي ذلك مضيعة للحق الكامل ، وهذا باطل .

القسمة الكلية لا تنافي التدرج :

ممـــا ينبغي فهمه أن القسمة الكلية العقلية لا يمكن أن تتنافى أو تتـــناقض عقلياً مع سنة التدرج ، لأن التدرج يعتبر مرحليات للوصول إلى غاية كلية في النهاية ، والتدرج إنما يراعي قدرات النفس وطاقاتها ويكون هذا في إطار التشريعات على سبيل الترقي والتعود لا التجزئة .

أما القسمة الكلية فتنحصر في مجال العقائد الصحيحة وما ينبني عليها من أفكار منضبطة .

فـــلا يمكن التسليم للعقل بأن للكون إلهين بدلاً من ثلاثة ، ومن المســـتحيل التســـليم إلا بإله واحد ، كما لا يمكن قبول بعض الصفات الإلهية ورفض البعض الآخر، أو تعطيلهمـــا ، كما لا يمكن الإيمـــان

بالرســـول وإنكار الوحي والعكس ، ولا الإيمان بجملة العقائد وإنكار اليوم الآخر .. وهكذا .

فإمـــا أن يقـــبلها العقل بصورتها الكلية الكاملة فيصير موحداً مؤمناً ، وإما أن يرفضها كلياً فيصير مثلِّثاً أو مثنياً أو كافراً أو ملحداً أو مشركاً ويتحمل هو نتيجة قراره .

فهـــذه أصول تضبط بها العقائد وتصان ، والعقل يقتضي حفظ الأصول وصيانتها ، مثلما يراعي حفظ الفروع .

ثانياً : منهجية التأسيس والبناء :

فـــي ضوء هذا النهج الذي تقتضيه القسمة العقلية في التطهير الكـــامل لكـــل المعوقات التي يمكن أن تسبب في المستقبل القريب أو البعـــيد ، أو فـــي الوقـــت الآني مشكلة فكرية تتهدد إرساء قيم العقائد الصحيحة ، والشرائع الصادقة ، وقيم الحق المطلق .

وطبقاً لما تمليه من ضرورة تلافي هذه المشكلات ، والقضاء عليها تماماً.. في ضوء هذا النهج ، وبعد مرحلة التطهير تأتي منهجية البناء والتأسيس ، وقد تطهرت العقول من كل ما يعوقها عن النظر الصحيح والتأمل الصادق ، والنظرة الثاقبة . وصفت النفوس .. وتهيأت الفطر لتقـــبل كـــل مـــا جـــاء عـــن الحق سبحانه وتعالى من عقائد وشرائع وأخلاقـــيات وقـــيم ومبادئ تحقق للمجتمع الأمن والطمأنينة ، وللعقل الرشاد والاستقامة ، وللنفس الاستقرار والثبات ، والعزة والكرامة .

فالإنسان بقدر عقله ، والعقل بقدر صدقه ، وصدقه بقدر صفائه ونقائه .

ولا يمكـــن أن تقبل القسمة العقلية نجاح التأسيس والبناء للدين الحـــق ما لم تطهر القلوب والعقول والنفوس من دنس الباطل ، ورجز الشـــيطان ونزعات النفس ، وهواجس الخاطر ، وانحرافات العقائد ، وظلم القوانين والأعراف وطغيان الواقع .

مـــن ثـــم نجد القرآن الكريم يثير العقل إلى النظر في مقدمات تفضـــي إلـــى نتائج تقتضي فساد التصورات العقدية التي سادت البيئة العربية والعالم آن مجيئه ، وتبين انحرافات الشرائع ، وظلم القوانين ، وسطوة الأعراف والتقاليد ، وتبين خطورة الاستكانة لذلك الواقع الذي يضم في طياته كل صور الانحراف والفساد .

وهكـــذا جاء الإسلام في منهجه الاستدلالي ليقيم في العقل ثورة على كل فاسد ، ويدعوه إلى ضرورة تغيير ذلك الواقع ، وتطهيره من تلك الصور الفاسدة وذاك النهج الفكري المتداعي .

ثـــم تأتي مرحلة " التأسيس والبناء " كمرحلة ثانية من مراحل منهجـــية الاســـتدلال متزامنة مع مرحلة التطهير، غير منفصمة عنها إيقانـــاً بحتمـــية الـــبديل الصالح للموروث الفاسد في صور مختلفة ، كالمقارنات ، أو التمثيل ، أو إصدار الحكم ابتداءاً .

وهـــذه منهجـــية أرســـى القرآن الكريم قواعدها في تأسيس أو تأصيل العقائد ، وإكمال كيانها البنائي المتكامل ، فقد هدم عقائد التعددية

الإلهـــية بـــدءاً بـــــ " الإثنينية " ومروراً بالتثليث ، وإبطال كل صور الشرك ، ليقيم التوحيد الخالص لله تعالى .

وهـــدم عقـــائد الملاحـــدة الذين ينكرون وجود إله في الكون ، ويـــنكرون الدين لإثبات قضايا الوجود الإلهي ، وتأصيل فطرية الدين في النفس الإنسانية .

كما هدم عقائد الدهريين الذين نسبوا الخلق إلى الدهر، وأنكروا الإحياء بعد الموت لإثبات الصانع ، وتقرير عقيدة البعث .

وهـــدَم عقـــائد الكفار لإثبات وحدانية الله تعالى وإبطال الندية وعبادة ما سواه .

وهـــدَم عقـــائد اليهود المادية في الإله ، وعقائد النصارى من حيـــث القـــول بالبنوة ، والحلول والاتحاد وغيرها لنفي صفات المثلية والمشابهة عن الله تعالى .

وهـــدم عقائد عبدة الكواكب ليثبت أن إله الكون يجب أن يكون ثابتاً لا يتغير ولا يزول ، وأن يكون منزهاً عن الأغيار .

كمـــا هدم عبادة الأصنام ، ليثبت أن النافع والضار هو الله ﷻ وحده ، وأنه تعالى لا تحده حدود الزمان ولا المكان .

وهكذا دواليك .

إنها إذن منهجية قويمة .. منهجية " هدم " و" بناء ".. هدم لفاسد واهٍ ، وبناء لصالح قوي باقٍ .

وهكـذا يرسي الإسلام قواعد العقيدة الحقة في غضون إبطاله لفاسـد الاعتقاد ، ويبين سداد الفكرة والنظرة المنضبطة بينما يوضح أوجه القصور والعجز في مدارك العقول .

ثالثاً : الوقـاية :

تقتضي الحكمة العقلية " صيانة " المبنى بعد الإنشاء والتأسيس مـن التصـدع والانهـيار ، مـثلما تقتضي وضع الضوابط لصيانة المعتقدات والأفكار من التفلت والانحراف .

فليس التأسيس والبناء فقط هو الغائيّ ، وإنما الحفاظ عليه غاية الغايات .

ولم تكن غاية " **الهدم والبناء** " كواحدة من قواعد منهج الدعوة الاسـتدلالي فـي القرآن الكريم مجرد تأسيس وإرساء قواعد الاعتقاد الصـحيح ، وإتمام بنائه الناضر ، وإنما عنيت بإبقاء هذا البناء شامخاً لا يمـس ، ومصوناً لا ينال منه ، وعنيت بأن تكون التوجهات العقدية فـي ذات المدعويـن قويـة وراسخة ، كي لا يضلوا بعد هدى ، ولا يـنحرفوا بعـد اسـتقامة ، وقد أدركوا لذة الإيمان ، ومرارة الكفر ، وحسن الاعتقاد الصحيح ، وقبح الاعتقاد الفاسد .

إنه يجب عليهم قطع خط الرجعة إلى الماضي والانتكاسة فيـه

مروراً بذلك إلى نقطة الصفر .

كمـــا يجـــب علـــيهم قطع أي صلة بالعقائد القديمة ، وموالاة الظالمين ومصادقة المنحرفين، أو الحنين إلى الأعراف والتقاليد البالية وموروثـــات الآباء الفاسدة ، ونعرات المجد الزائف ، حتى لا يتأثروا بشيء من ذلك .

منهجية القرآن الكريم في الهدم والبناء :

لـــم تكـــن قاعدة الهدم والبناء في المنهج الاستدلالي في القرآن الكـــريم عملاً غير منهجي ، إذ لم تكن من قبيل السرد الذي لا يراعي الواقـــع ، ولا يلتفـــت إلى قدرات العقل وطاقات النفس ، وإنما كانت عملاً يقوم على المنهجية القويمة في التغيير الكائن في النفي والإثبات والنقض والإنشاء .. والإحلال والتركيب .

فقـــد اعتمد المنهج الاستدلالي في تقعيد هذه القاعدة الاشتدلالية فيما يبدو على ركيزتين :

أولاً : بيان أوجه الفساد والعلل .

ثانياً : بيان قيم البناء الراشد وغاياته .

أمـــا بـــيان أوجـــه الفساد والعلل : فقد ركز القرآن الكريم في منهجـــية استدلاله عليه تركيزاً كبيراً ، إذ أن أهميته تأتي في بيان أن القـــرآن الكريم لم يَثُر على المعتقدات والأفكار والتصورات المنحرفة والواهية لمجرد الثورة فقط، أو الاتجاه إلى التغيير ، ولم يكـــن هدمه

لها ضرباً من الاعتساف والمصادرة ، وإنما كان يقوم على بيان أوجه الفساد والعلل حتى تبرز في العقول خطورتها ، وتقنع بضرورة التغيير ، نظراً لما يترتب على ذلك من خطورة على مسيرة الاعتقاد الصادق ، والتفكير الواعي .

وأما بيان قيم البناء الراشد : فقد أبرزها القرآن الكريم أيضاً في معرض الاستدلال على عقائده الصحيحة ، وشرائعه المنضبطة والمتوازنة ، كما أبرز أوجه الحق فيها ، وبين آثارها على الفرد ، وغاياتها التي تهدف إلى عمارة الكون بدين الحق ، وإخراج الإنسان من الظلمات إلى النور .

تأصيل هذه القاعدة :

لا مرية أن في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤصل لقاعدة " الهدم والبناء " كواحدة من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي .

ومما يدل على ذلك ما يلي :

(١) قول الله تعالى : ﴿ **ن . والقلم وما يسترون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين ...** ﴾ [١] .

---

(١) سورة القلم (١ – ١٠) .

(٢) وقولـــه تعالى ﴿ قالوا [١] ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملـــنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهـــم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هـــارون مـــن قـــبل يا قوم إنما فُتِنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قـــال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري . قال يابنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي . قال فما خطبك يا سامري قال بَصُرت بمـــا لـــم يَبصُـــروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك ســـولت لي نفسي . قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لـــك موعـــداً لـــن تُخلَفَه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً . إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شئ علماً ﴾ [٢] .

(٣) وقوله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون

---

[١] أي قوم موسى عليه السلام له بعد عودته من الميقات . وقد صمعوا العجل وعبدوه من دون الله تعالى .

[٢] سورة طه (٨٧ – ٩٨) .

ما أعبد . لكم دينكم ولي دين ﴾ [١] .

(٤) وقولـــه تعالى ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ولـيكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفَل قال لا أحب الآفلين . فلما رءا القمر بازغاً قال هذا ربـي . فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلمـا رءا الشـمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر . فلما أفلت قال يا قـوم إني برئ مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنـيفاً وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجوني فـي الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسـع ربي كل شئ علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخـافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [٢] .

(٥) وقولـــه تعـالى ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغـوا إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ [٣] .

---

[١] سورة الكافرون .

[٢] سورة الأنعام (٧٥ – ٨٢) .

[٣] سورة هود (١١٢ ، ١١٣) .

(٦) وقولـــه تعـــالى ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدتَّ تركن إليهم شـــيئاً قليلاً . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ (١) .

(٧) وقولـــه تعالى ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كـــنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفِكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملـــون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ (٢) .

(٨) وقولـــــه تعـــالى ﴿ لـــيحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ (٣) .

(٩) وقولـــــه تعالى ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر صور مـــثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما أُنزل بعلم الله ولا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون . من كان يريد الحياة الدنيا نوف إليهم أعمالهم فيها وهـــم

---

(١) سورة الإسراء (٧٤ ، ٧٥) .

(٢) سورة الأعراف (١١٣ – ١٢٢) .

(٣) سورة الأنفال (٨) .

فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

(١٠) وقولـــه تعـالى ﴿ أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرهـا فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلـية أو مـتاعٍ زبدٌ مثلُه كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءاً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (٢) .

(١١) وقولـه تعالى ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فـلا يَغْـرُرك تقلبهم في البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهَمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليُدحِضُوا به الحـق فأخذتهم فكيف كان عقاب . وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفـروا أنهـم أصـحاب الـنار . الذين يحملون العرش ومن حوله يسـبحون بحمـد ربهـم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسـعت كل شئ رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عـذاب الجحـيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح مـن آبـائهم وأزواجهـم وذريـاتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وَقِهم السيئات ومن تَقِ السيئات يومئذ فقد رحمتَه وذلك هو الفوز العظيم .

---

(١) سورة هود (١٣ ـ ١٦) .

(٢) سورة الرعد (١٧) .

إن الذيـــن كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تُدْعَون إلـــى الإيمـــان فـــتكفرون . قـــالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفـــنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل . ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ﴾ [١] .

دلالات التأصيل :

عـــندما نتأمل بعين ثاقبة ، وبصيرة نافذة ، ونظرة فاحصة هذه الآيـــات الكـــريمة نجدهـــا واضـــحة الدلالة على تأصيل هذه القاعدة المنهجـــية لمنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم : " قاعدة الهدم والبناء " لما يلي :

١ – قوضـــت الآيـــات الكريمة قواعد البنيان العقدي المنحرف والذي ساد فترة من الزمن في بيئات مختلفة ، وأنحاء متفرقة من الأمم والشـــعوب ، حتى تاهوا في ضروب الاعتقاد الفاسد ، وعاشوا تحت وطأة الأوهام والظنون .

وهـــذا مدلـــول قولـــه تعالى " ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفـــروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب " .

---

(١) سورة غافر (٤ – ١٢) .

ومدلـــول قولـــــه تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : " وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف " .. الآية . ومدلول قوله تعالى عـــنه أيضاً " وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون " .

٢ – بينت الآيات الكريمة أن الباطل ليس له قدم يقف عليها .. لأنـــه يفتقد أدلة مصداقيته ، بل يحوي بين طياته أدلة فساده وعلامات بطلانه ، وهذا مدلول قوله تعالى " وأما الزبد فيذهب جفاءاً " .

٣ – كما أشارت إلى أن الحق قيمة لا تقبل التنازل أو المداهنة وقد نهت الرسول ﷺ عن الميل لمداهنة المشركين الذين تمنوا مداهنته بـــل وعرضـــوا عليه ﷺ أن يتعبد بدينهم عاماً ويتعبدون بدينه عاماً ، وهـــذا مدلول سورة الكافرون " قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنـــتم عابدون ما أعبد .. إلى أن قال تعالى " لكم دينكم ولي دين " كمـــا بينـــت الآيـــات الكريمة أن الله تعالى حفظ رسوله ﷺ من الميل إليهم [١] ، " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً " .

وهكـــذا أوجبـــت الآيات ضرورة أن تكون هناك فواصل قوية وراسخة ، وحـــدود واضحة تأبى الخلط بين قيم الحق والباطـــل ، أو

---

[١] راجع في هذا : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للعلامة برهان الدين البقاعي (١١ / ٤٨٤) مكتبة ابن تيمية ، ط (١) ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، وفتح البيان في مقاصد القرآن الكريم : للعلامة أبي الطيب البخاري (٧ / ٤٣٢) المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .

حتى مجرد المساس بقيم الحق، ومبادئه العادلة ، ومنهجيته المعصومة وأنـــه لابـــد من أن تكون قوي الحق متحققة بالثبات لتستطيع الصمود والـــتحدي لقوى الباطل وجبروته وبطشه ، وهذا مدلول قوله سبحانه : " فوقـــع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين " وقوله تعالى " ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون " .

٤ – كمـــا أشارت الآيات الكريمة إلى علل الفساد والانحراف العقـــدي مـــن اتباع الهوى ، وتغلغل النزعة المادية ، وتغييب العقل ، وأشـــارت إلـــى حتمية إزالتها ، وضرورة المعالجة ، وتقديم التصور الصـــحيح للديـــن والأصول والقواعد الصادقة لإرساء عقيدة صحيحة وتحقيق قيم البناء العقدي الراشد .

٥ – كمـــا بينـــت الآيـــات الكـــريمة محاسن هذا البناء العقدي الصـــحيح ، وأنه أثر لانضباط الكون ، وتحقيق التوازن النفسي ، وأنه يهـــدف إلـــى تحقيق مصالح الإنسان العاجلة والآجلة ، وأن الملائكة تتولى الدعاء لمن صدقت عقيدتهم ، وكمل إيمانهم ، واستقامت سيرتهم " فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم .. " الآيات .

٦ – وأصَّـــلت الآيات الكريمة ضرورة مراعاة الجانب الوقائي الـــذي يصـــون العقائد والشرائع من الانحراف ، ويحفظ الإنسان من الـــتردي ، وذلك بالنهي عن الركون إلى الظالمين ، وهذا مدلول قوله تعالى " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار " .

المبحث الثامن

مراعاة مستويات الإدراك

من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم " **مراعاة مستويات الإدراك في إنشاء الأدلة** " ، فقد راعى القرآن الكريم في نصب الأدلة الفروق بين المدارك العقلية ،وتفاوت العقول في فهمها والوقوف عليها حيث تتفاوت دلالاتها بين الظهور والخفاء، فقد تمثل في مخيلة البعض على نحو من الجلاء والوضوح ، وقد تمثل في مخيلة الآخرين وهم يعجزون عن فهمها، لا لأن الأدلة تأتي فوق مستوى الإدراك العقلي ، وإنما لأن هؤلاء لم يتأهلوا لفهمها وإدراك كنهها وماهيتها ومقتضياتها ونتائجها وأحكامها ، إذ أنهم ليسوا من طلاب العلم وأهل الاختصاص الذين يستطيعون بناء المقدمات ، وترتيب النتائج عليها ، ونصب الأدلة واستنباط الأحكام منها ، وإجراء القياسات التي تقتضي يقظة ووعياً لفهم أوجه الشبه والفروق بين المقيس والمقاس عليه ، من حيث ما يتفقان فيه أو يختلفان ، ومن حيث طبيعة كل منهما ، والمصالح المتحققة فيهما ، فإن إجراءات القياس تأتي على نحو من الدقة والعمق لتستوعب كل دلالات الحجج والبراهين والأدلة والشروط [١] والفروق والعموم والخصوص ،

---

[١] إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ، تحقيق عصام الصباحي (١ /١٢٠) وما بعدها ، دار الحديث ، ط : (٣) ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، والموافقات للإمام الشاطبي (٣ / ٢٣٢) مرجع سابق .

والإجمـــال والتفصـــيل ، والإطـــلاق والتقييد ، وغير ذلك من مباحث الأدلـــة ، ومناهج التفكيـــر، وقواعد الجدل ومبادئه وآدابه ... الخ .

مراعاة طبيعة عمل العقل :

وقد جاءت هذه القاعدة لتراعي إلى جانب ما سبق طبيعة عمل العقـــل ، الذي يعتمد على وسائل حسية قاصرة عن إدراك المدرَكات إدراكـــاً كلـــياً مطلقـــاً ، لأنها تعمل في نطاق قدرتها ، ووفقاً لطبيعتها التكوينية البشرية .

فالماديـــات هـــي مـــادة إدراكها ، وكذلك المعنويات ، بيد أن إدراكها للمعنويات يخضع لضوابط وقيود .

ولـــنا أن نفهـــم هذا في ضوء طبيعة عمل الوسائل الحسية مثل السمع والبصر واللمس والشم والتذوق ، فثمة مدركات يستطيع البصر إدراكهـــا إدراكـــاً مجـــرداً ، وأخـــرى لا يستطيع إدراكها إلا بوسائل تكنولوجـــية دقيقة كالمجهر أو الميكروسكوب ، ومدركات لا يمكن أن يدركها لا بهذه ولا بتلك .

فهـــو لا يســـتطيع إدراك الفيروسات ولا الكائنات الدقيقة بعينه المجـــردة ، كما لا يستطيع إدراك أجرام في السماء تباعدت عن العين حيـــث دَقَّت مع عظمتها ، ولطفت مع ضخامتها ، فللبصر درجة دنيا ودرجة قصوى لا يستطيع أن يدرك ما دونها ولا ما فوقها .

وقـــس على ذلك السمع فثمة درجة دنيا ودرجة قصوى تدرك

الأذن بهـــا الأصوات ، فلا تستطيع أن تدرك ما دون مستوى السمع ، لضعف موجاته الصوتية ، كما لا تستطيع أن تدرك ما فوق مستـــوى الســـمع مـــع قوته كالأصوات الصادرة عن حركة الكواكب والأجرام الضخمة في الكون مع قوتها . ولله تعالى في كونه أسرار .

أضـــف إلـــى ذلك أن العلم الحديث أثبت (أن العقل يعجز عن إدراك المـــادة التي هي موضوع إدراكه إدراكاً مطلقاً ، حيث بين أن العقـــل حتى الآن مازال يجعل إدراك بعض جوانب المادة التي يدركها ويؤمن بها) [١] .

وإذا كـــان هـــذا طبـــيعة العقل الخاص – عقل المتخصصين والباحثين – فما بالك بإدراكات العوام .

فـــي ضوء ذلك نرى القرآن الكريم يخاطب العقل طبقاً لدرجة ثقافـــته وطاقاته الإدراكية ، وقدراته الذهنية ، فهو يخاطب الفيلسوف بما يشبع نهمه المعرفي، ويثير في ذهنه قضايا تغري ملكاته الإدراكية فيعرض عليه القضايا في معرض الإثبات أو النفي في صورة مقدمات عقلية [٢] ونتاج ، وبراهين وأدلة وحجج ، لأن هذا العقل الخـــاص

---

[١] راجع الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة : تأليف د / حسن عيسى عبد الظاهر وآخرون (ص ٢٣) مطابع الدوحة الحديثة المحدودة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م بتصرف .

[٢] ينبغي ألا يتوهم من هذا أن القرآن الكريم به نتاج عقلي ، حاشا لله ، وإنما يقصد بهذا أن مقدمات القرآن في خطابه للعقل تتفق مع إدراكاته وتنسجم مع طبيعته ، وهذا أبلغ وآكد في الإقناع .

أِلــف مناهج البحث ، والتفكير العميق ، والتحليل والتركيب ، والتأمل الفاحص.. إنه يلف الكون في ذاته ، ويحاول جاهداً احتواءه، والتنقيب عما استودع فيه من أسرار وآيا وعبر .

وفــي ذات الوقت يتوجه إلى عقول العامة البسطاء في طرائق تفكــيرهم ، والــذي لا يخــترقون لُباب المعاني ، ولا يسبِرون أغوار الأفكــار ، ولا يســتطيعون تحليل القضايا ، بل يتلقونها بظواهرها ، ولا يدركون علاتها وعواهنها .

إنــه يــتوجه إلــى هــذه العقول بما يتفق وتركيبتها الفكرية ، وقدراتها البسيطة على التأمل والتفكير والنظر .

وفرْق بين هؤلاء وأولئك.. بين من لا ترضيه النظرة السطحية بــل تضايقه لأنها تشعره بضآلة عقله ، وبساطة تفكيره ، وبين من لا يســتطيع تجــاوز الظواهــر الســطحية للأفكار ، وتشعره محاولات اختراقها بالعجز والإعياء .

فلو خاطب القرآن عقول الحكماء والفلاسفة وأصحاب المنهج الجدلي ، والــرؤية الــنقدية بالأسلوب الذي يخاطب به العوام ، حيث يلفتهم إلى الظواهــر فحسب والعكس ، لضاق بهم منهجه ، وما وجدوا فيه متعة الإقــناع ، ولــذة المؤانسة ، وبالتالي يملوه ، وينكروه ، ويجحدوه .. ويكون الإسلام قد خسر قطاعاً ذا قيمة قد يكون أقدر الناس على فهمه ، وأكثرهم تطلعاً إلى نشره والدعــوة إليه ، وهذه خطوة رائعــة علــى

طـــريق التحرير العقلي ، تستوعب كل القدرات والطاقات والإمكانات على اختلاف طبيعتها ودرجتها (فما من خطوة في تاريخ البشريـــــة حررت العقل ، ووضعته في موقعه الصحيح ، كهذه الخطوة : تحويل الـــتوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحـــده ، ومـــن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان، إلى محـــبة الحـــق ، الـــذي لا تلمسه الأيدي ، ولا تراه العيون ، إنه كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب ، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس القريب) [١] .

هـــذا بـــناء على مخاطبة العقل بما يتلائم ويتناسب مع طبيعة إدراكه ، وطريقة تفكيره .

لذا نجد أن من حكمة القرآن الكريم في منهج الاستدلال مراعاة الفروق بين المدركات ، ومراعاة مستويات العقول في إدراكها .

تأصيل هذه القاعدة :

لا مرية أن تدبر آيات القرآن الكريم ، ودراسة منهجيته القويمة توقفنا على آيات ودلالات تؤصل قاعدة " مراعاة مستويات الإدراك " كأحد قواعد منهج الدعوة الاستدلالي .

ومن هذه الآيات الكريمة ما يلي :

---

[١] إعادة تشكيل العقل المسلم : عماد الدين خليل (ص ٣٥) مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ بتصرف يسير .

١ – قول الله تعالى ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [١] .

٢ – قوله ﷻ ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ [٢].

٣ – قوله تعالى ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [٣] .

٤ – وقوله تعالى عن الحوار الذي دار بين فرعون ونبي الله موسى عليه السلام : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه

---

[١] سورة الزمر (٩) .
[٢] سورة فاطر (٢٧ ، ٢٨) .
[٣] سورة الأنبياء (٢١ – ٢٣) .

آياتنا كلَّها فكذب وأَبَى . قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحـــرك يا موســى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعد لا نخلفه نحن ولا أنــت مكانــاً سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضُــحى. فتولى فرعون فجمع كيدَه ثم أتى . قال لهم موسى ويلَكم لا تفْتروا على الله كذباً فيُسْحِتَكم بعذاب وقد خاب من افترَى ﴾ إلى قوله تعــالى ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى . قــال بــل ألقُــوا فــإذا حبالُهم وعصيُّهم يُخَيَّل إليه من سِحْرهم أنها تســعى . فــأوجس فــي نفسه خِيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلــى . وألقِ ما في يمينك تلْقَفْ ما صنعوا إنما صنعوا كيْدُ ساحر ولا يفلــح الســاحر حيث أتى . فأُلقِيَ السحرةُ سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ (١) .

٥ – وقولــه تعالى ﴿ قل أرءيتم إن أخذ الله سمعَكم وأبصارَكم وخــتم علــى قلوبكــم مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون . قل أرءيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ (٢) .

٦ – وقولــه تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر

---

(١) سورة طه (٤٩ – ٦١ ، ٦٥ – ٧٠) .

(٢) سورة الأنعام (٤٦ ، ٤٧) .

قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لهـا أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ [١] .

٧ – وقوله تعالى ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون ﴾** [٢] .

دلالات التأصيل :

كمـا هـو دأبه يمتعنا القرآن الكريم بدلالاته المنهجية الثرية ، وإطلالاته النديّة على مدارك الإنسان ومجاري العقول ، ومنافذ القلوب البصيرة لنستنبط منها دلالات التأصيل لهذه القاعدة " **مراعاة مستويات الإدراك** " كواحـدة من أهم قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم . وإننا لنلمع إلى هذه الدلالات فيما يلي :

أولاً : تقرير اختلاف العقول :

تقرر الآيات الكريمة في ضمنية دلالاتها أن العقول مختلفة في مجاريها ومستويات إدراكها ، وهذا يرجع إلى ما يلي :

١– طبيعتها التكوينية .

٢– الوهب الإلهي .

٣– وأيضاً إمكانيات الكسب البشري وطاقاته وقدراته .

٤– وقد يرجع إلى إعاقة العقل عن التفكير والنظر والتأمل .

---

[١] سورة يس (٣٧ – ٤٠) .

[٢] سورة النمل (٨٨) .

وهذا مدلول قول الله تعالى (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) .

إنمـــا ينتفع بالتذكرة أصحاب العقول السليمة [١] التي جردت عنها كل معوقات الإدراك ، وهذه قاعدة عامة في التفريق بين من يعي الحكمة ومـــن لا يعـــيها ، وبيـــن من يعلم ومن لا يعلم ، وبين من يفكر ومن يـــتقاعس عن التفكير ، وبين من امتلك أدوات النظر الصحيح ومن لم يمتلكها ، ويترتب على ذلك استجابة وإقدام ، أو إنكار وإحجام .

ولعلـــنا قـــد أشـــرنا إلى شئ من ذلك في بيان قاعدة " المقابلة والتمييز " لكن مقام الدلالة هنا مختلف عن ذاك .

ثانياً : آيات تراعي الفوارق بين العقول :

لئـــن كانـــت آيـــات كريمات قد جاءت لتقرر هذه الفوارق في مســـتويات الإدراك بيـــن العقول ، فقد جاءت آيات أخرى لتراعيها ، وتؤســـس علـــى ذلـــك خطابـــاً يتوجه إلى كل منها على قدر طاقاته وقدراته.

فقد راعت طبيعة ذوي الملكات الإدراكية الخاصة سواء أنيلت بالجود الإلهي أو الكسب ، كما راعت عقول ذوي التفكير البسيط الذين لا يمتلكون تلك الملكات ، ولم يكن لهم بمناهج التفكير سابق عهد .

---

(١) راجع تفسير روح المعاني للإمام الألوسي (١٣ / ١٣٩) مرجع سابق ، وفتح القدير للشوكاني (٣ / ٧٩) دار الفكر ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

ونســـتطيع أن نلمـــس شـعـارات هذه الدلالة في مخاطبة العقول البســـيطة بالظواهر الكونية المعتادة والمألوفة التي ترمقها أعينهم كل صباح ، وتلفها كل مساء ، كحركة الشمس والقمر التي لا يشكون في يقينيتها ، وهي تكابد صفحات السماء ليلاً ونهاراً .

بـــيد أنك قد لا تلمس هذه المعاني بنفس البساطة والظهور في مخـــيلات هؤلاء عندما تتأمل خطاب القرآن الكريم لأصحاب التفكير الدقيق، والنظر الثاقب، الذين يدركون قيم القياس الدلالية، ويستطيعون استنباط أوجه الشبه وصور المحاكاة .

وقـــد تمـــثل ذلك في حديث القرآن الكريم عن حركة الأرض بإشارات ضمنية لا تصريحية، يفهمها ذوو الملكات الخاصة ولا يفهمها الإنسان البسيط الذي لا يدرك من الأمور إلا ظواهرها .

فقـــد عبر عن حركتها بحركة الجبال التي تراها العين ساكنة ، وشبهها بحركة السحاب ليقيس الإنسان الحركة الأولى بالحركة الثانية. لكن حركة الجبال لا يمكن أن تجري والأرض ساكنة حقيقة ، فاستلزم ذلك حركة الأرض ، وهكذا يأتي القياس وتكون المحاكاة والمشابهة ، ولا يستطيع أن يدرك ذلك الإنسان العادي .

ثالثاً : معجزة نبي الله موسى عليه السلام وإدراك السحرة وعقول البسطاء :

لا مرية أن إدراك سحرة فرعون بحقيقة سحرهم يختلف اختلافاً كبيراً عن إدراك البسطاء ، الذين لا يعرفون طرائق السحر وأدواته ،

ولا هم صناعه ومهرته ، وبالتالي لا يعرفون حقيقته ، بخلاف السحرة الذيـــن دأبـــوا هذا العمل القبيح واستمرءوه وأوهموا أنفسهم به ، حتى دفعهم ذلك إلى تخيل أنهم قادرون على معارضة نبي الله موسى عليه السلام.

وجـــاءت معجـــزته عليه السلام لتتحدى – ليس البسطاء الذين صدقوا السحرة – وإنما السحرة أنفسهم ، لأنهم أصدق إدراكاً بما يصنعون من غـــيرهم ، ويثبت للعقول جميعاً بطلان السحر ، لكنه لا يتحدى إلا من مهر به ، لا من صدقه لأنه مخدوع فيه .

ويأتي القرآن الكريم ليصور هذا المشهد الذي تمثلت شخصياته في فرعون والسحرة ومن آمن بهم ، ونبي الله موسى عليه السلام ومن صدقه وآمـــن بـــه في يوم جُمِع له القوم ليشهدوا مصرع رسالة موسى عليه السلام المنتظرة .. ولكن هيهات .. هيهات .

ويبيـــن القرآن الكريم استهلال السحرة بإيقاع السحر بناء على موافقة موسى عليه السلام (إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فـــي نفســـه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا . إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى) .

وكـــان الســـحرة علـــى أمـــل إرهاب موسى عليه السلام وتعجيزه ، وتمنوا أن يكونوا هم الذين يمتلكون زمام المبادرة لمحاولة التأثير على

الـــناس ، وإيجـــاد واقـــع نفسي يؤثر على اتخاذ القرار ، ولم يكونوا يـــتوقعوا أن تـــدور الأرض دورتهـــا ، ويكونوا هم الخصم الأضعف والأوهى ..

وبالفعل يلقي السحرة سحرهم، فخيل إلى الناس وإلى موسى عليه السلام أنها تسعى .. ويتوجس موسى عليه السلام خيفة .. ولكن الله تعالى يهدئ من روعه " لا تخف إنك أنت الأعلى" ، وعندما ألقى ما في يده " العصا " إذا بها حية تسعى على الأرض سعياً حقيقياً لا كسعي ما ألقاه السحرة .. بل إنها تلقف ما صنعه السحرة وأكلته ولم يعد له أثر ، وبقيت هي وحدها على الأرض ، ثم أعيدت عصا مرة أخرى بقدرة الله تعالى .

والشـــاهد أن الله تعـــالى راعى مستوى إدراك السحرة وأقنعهم بطـــريقة عملية ببطلان ما يصنعون ، وصدق ما جاء به موسى عليه السلام حـــتى آمـــنوا وكانوا أشد الناس إيماناً به ، وتحدوا فرعون ولم يبالوا بـــتهديداته ﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فـــاقض مـــا أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى**﴾ (١)

فلـــم يتحدث عنهم القرآن الكريم وهم أهل دراية بالسحر حديثه عن غيرهم الذين لا يعرفون حقيقته، وإن كان هذا لا يمنع من إمتـــاع

---

(١) سورة طه (٧٢ ، ٧٣) .

بعضهم ومؤانسته ، فهو خطاب إلهي تأخذ العقول .. كل منها بقدر ما أوتي من علم وحكمة ، وتفكير وإدراك .

وهـذه طبـيعة خطـاب الخاصة ، وخطاب العامة في القرآن الكـريم ومما يؤكـد هذا ما قاله د/ عبد الله دراز : (فهاتان غايتان أخـريان متـباعدتان عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشـوف الـذي تخاطـب به الأغبياء ، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضـونه لأنفسـهم فـي الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فـلا غنى لك إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها من بيانك ، أن تخاطـب كـل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى ، كما تخاطب الأطفـال بغير ما تخاطب به الرجال ، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلمـاء والجهلاء ، وإلى الأذكياء والأغبياء ، وإلى السوقة والملوك ، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله ، وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم . فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوْفَـى كـلام بلطـائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهـم لا يلتوي على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة ، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾) [١] .

---

[١] النبأ العظيم : د . عبد الله دراز (ص ١١٣) مرجع سابق .

وهكذا يتضح مدى أهمية هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية في نصب الأدلة وإنشائها لتراعي ملكات الإنسان وطاقاته وقدراته ، ومراتب إدراكه ، وتفاوت عقله من حيث دقة الفهم ، وسطحية النظرة .. وعمق التأمل .. وظاهرية الفكرة ، ومن حيث مراعاة خلفياته الفكرية الخصيبة والضحلة ، وعن تلك التي تعرب عن ذكائه أو تفصح بغبائه .

إنه منهج يتعامل مع هذه المراتب ، ويراعي تفاوتها ، فلم يأت لمرتبة دون أخرى ، ولم يتوجه إلى طائفة الأذكياء دون الأغبياء ، إن كل العقول تظهر فيها شارات المعاني الدلالية ، وإن اختلفت في إدراكها وتفاوتت في فهمها .

وهذا أدعى لتقبل تلك العقول قضايا الدعوة والانفتاح عليها ، وعدم الانغلاق دونها ، الأمر الذي يتطلب من الدعاة إعادة التفكير في مناهج دعوتهم ، وعدم الاهتمام بالمثقفين دون العامة وبالأذكياء دون الأغبياء .

المبحث التاسع

فساد الحكم ناشئ عن فساد التصور

ممـــا لا يقبل الجدل أو النقاش ، وما لا يختلف عليه اثنان ، أن الحكم يدور مع التصور وجوداً وعدماً ،وصحة وخطأ ، وقوة وضعفاً وإثباتاً ونفياً ، وأخذاً ورداً ، وقبولاً ورفضاً ، واعترافاً وإنكاراً .

وهـــذه واحـــدة من مسلمات النظر السليم ، وشارة من شارات الحكمة وحسن الدلالة .

لـــذا نجـــد القـــرآن الكريم لا يكتفي فقط بإثارة تلك القضية في العقـــول ، وإنمـــا يجعلها مفرداً من مفرداته المنهجية فيما يتعلق بأحد أخطر المناهج في الإثبات والنفي ، وبناء الأحكام والأدلة ، وهو منهج الاستدلال ، فقد جاءت الأدلة القرآنية لتبين هذه القيم الثبوتية ، وأثرها في التصور ، وإصدار الأحكام .

ويقيـــناً مـــثلماً هـــو بديهـــي أن التصور إذا جرد من معوقات الإدراك ، وتشـــويش الأفكار ، وتغيب العقل ينبثق عنه حكم صحيح ، أمـــا إذا ما تاه العقل في ضلالات الاعتقاد ، وغياهب الفكر ، ومآسن النظر، وركب متن الشطط، فلن يعود من رحلته إلا خاسئاً.. خاسراً ، ولـــم ينبثق عنه إلا تصور فاسد ، وعبارات تائهة ، ونظرات ضلت الحكمة ، ونتائج جافت المنطق ، وأحكام تصطدم بالواقع ، فتعجز عن الانسجام معه ، بل عن التعبير عنه !!

تأصيل هذه القاعدة :

ومما يؤصل هذه القاعدة ما يلي :

[١] قول الله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ **واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبَدون . ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه فقال إني رسولُ ربِّ العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يَرجعون . وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربَّك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم يَنكُثون . ونادى فرعونُ في قومه أليس لي مُلْك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون.أم أنا خير من هذا الذي هو مَهِينٌ ولا يكادُ يُبين . فلولا أُلْقِي عليه أَسورةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترِنين . فاستخفَّ قومَه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ (١) .

[٢] وقوله تعالى ﴿ **وما قدَروا الله حق قدْره والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الزخرف (٤٥ – ٥٥) .

(٢) سورة الزمر (٦٧) .

[٣] وقولـــه تعالى ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومـــه ليفســـدوا فـــي الأرض ويـــذرك وآلهتك قال سنقتّل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ [١] .

[٤] وقولـــه تعالى ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النســـاء بـــل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ [٢] .

دلالات التأصيل :

عـــندما نتأمل هذه الآيات الكريمة نجدها تدور حول عدة معان تـــبرز قيمة التصور الصادق ، وتبين فداحة خطورة التصور الفاسد ، فصحة التصور مرهون به صحة الاعتقاد ، واستقامة الخلق ، واعتدال العقل ، وصفاء الباطن ، وانضباط الظاهر .

ولعل هذا يتمثل فيما يلي :

١ – إن خطـــأ الإنسان في تصور طبيعة الأشياء يقلب موازين الحق ، ويذري بالقيم والمبادئ والمثل .. إنه يحصر الإنسان في دائرة المتناقضـــات ، بـــل يجعله أميل إلى النقيض السالب منه إلى النقيض الموجب إن لم يكن يكفر به أو يجحده ، إنه يرى الحق باطلاً والباطل

---

[١] سورة الأعراف (١٢٧) .

[٢] سورة الأعراف (٨٠ – ٨٢) .

حقاً ، يرى الإيمان كفراً والكفر إيماناً ، يرى العدل ظلماً والظلم عدلاً يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً .. بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد مـــن هـــذا : إلـــى إنكار ألوهية الحق سبحانه وتعالى وادعاء ألوهية البشر.. إنكار ألوهية الخالق ، وادعاء ألوهية المخلوق !! إنكار ألوهية الـــرب وتوهم ألوهية المربوب !! إنكار الباقي وإثبات الفاني !! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وهذا مدلول الآيات الكريمة السابقة والتي عرضت لمواقف من قصـــة فرعون تبدي خطورة انحراف التصور على العقيدة ، وقد تمثل هذا في صورتين :

أولاهما : انحراف عقيدة الملأ من قوم فرعون إذ تصوروا نبوة نبـــي الله موســـى عليه السلام إفساداً في الأرض ، لأنها تنكر عليهم عبادتهم الـــباطلة وتدعوهم إلى عبادة الله الحق سبحانه وتعالى.. وقد مثل هذا الانحراف في التصور ضغطاً نفسياً واجتماعياً قبيحاً على الملأ ، إذ دفعهم إلـــى الضغط على فرعون ، لضرورة التخلص من دعوة موسى عليه السلام والقضاء عليه (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك).

ويبدي ضغط الملأ الذي صوره القرآن الكريم أن فرعون كان يعبد آلهة من دون الله بدليل " ويذرك وآلهتك" .

وفـــي إجابـــة مدفوعة بالهوى ، ناتجة عن خطأ التصور يقول فرعون " سنقتل أبناءهم .. ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون " .

وهكذا دفع انحراف التصور الملأ من قوم فرعون إلى محاولة استئصـــال النبوة ، ووأد الدعوة إلى الله تعالى ، والتخلص من الدعاة المصلحين !

وفـــي ظل هذا تستطيع أن تتخيل البديل لهذا الصالح وخطورته على المجتمع .. إنه تأليه البشر .. وقتل المؤمنين الأبرياء !!

ثانيتهما : انحراف عقيدة فرعون نفسه بانحراف تصوره ، إذ غره ملكه وغره استخفافه قومه ، وطاعتهم له ، فادعى الألوهية ، وقال لهم " أنـــا ربكم الأعلى " .. " ما علمت لكم من إله غيري " .. " أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين " .

يالـــه مـــن تصور فاسد !! هل كل من ملك ملكاً أو حكم قوماً يكـــون إلهـــاً ؟! لـــو كان الأمر كذلك لرأى الناس آلهة كثيرة متعاقبة تحكمهـــم فـــتموت فيشـــيعونها ، ثـــم ينصـــبون آلهة أخرى مكانها ، وينتظرون موتها لتنصيب آخرين وهكذا .

انظـــر إلـــى روعة المنهج الاستدلالي وهو يربط صحة الحكم بصـــحة التصـــور ، وفســـاد الأول بفســـاد الثاني ، وكيف أن الحكم والتصور لا يمكن فصم عُرَى كل منهما عن الآخر .

٢ – كما يبدو هذا بجلاء ووضوح في قصة نبي الله لوط عليه السلام مع قومه ، إذ تبين كيف دفعهم فساد تصورهم ، وتخبط عقولهم إلـــى

ضـــرورة التخلص من لوط عليه السلام وآله ، لا لشئ إلا لأنهم رفعوا لواء الإيمـــان ، وأرادوا تطهـــير المجـــتمع من الفاحشة ، والارتقاء به من البهيمـــية إلـــى الإنسانية المهذبة ، وهذا مدلول قوله تعالى (فما كان جـــواب قومـــه إلا أن قـــالوا أخـــرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) .

وما يقال في هذا يقال في سابقه .

الفصل الثالث

مقاصد
منهج الدعوة الاستدلالي
في القرآن الكريم

رات
com

لا تخلو دعوة من منهج ، ولا يخلو منهج من مقاصد وأهداف ، بيد أن المقاصد والأهداف تتفاوت قوة وضعفاً ، وعمقاً وسطحية ، وشمولية وقصوراً ، وتتغاير من حيث طبيعتها التكوينية ، وتصوراتها العقلانية بتغير مصادرها وتعدد اتجاهاتها وأهدافها ، طبقاً لتغاير المناهج وتنوعها .

ولكن منهج الدعوة الإسلامية الاستدلالي في القرآن الكريم ليس مما يقبل التفاوت والتغاير ولا مما يقبل النقيض السالب ، وإن كان قد تنوعت طبيعته ، وتعددت صوره ، وتغايرت قواعده .

فهذا النوع والتعدد والتغاير واحد من مظاهر ثرائه في ذاته ومضامينه ومقاصده ، لدرجة أثرت الفكر الإنساني ، وقفزت بالعقل إلى آفاق رحبة من التفكير المنضبط ، والرؤية المستنيرة المتحررة من قيود الواقع وأوهام النفوس المريضة ، والعقول المنفلتة ، فهو إلهي المصدر معصومة نصوصه ، راشدة مقاصده ، منضبطة قواعده .

ولعلنا من خلال ما سبق من استنباط وتأصيل لقواعده نستطيع تفهم هذه المقاصد ، ومنها ما يلي :

أولاً : إثبات قضايا المدعو إليه :

لا يخفى أن قضية الإثبات واحدة من أخطر القضايا التي اختلفت حولها الفهوم ، وتناقضت فيها الطروحات ، والتي كانت معتركاً بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والحقيقة والافتراء ،

واليقين والشك ، والوضوح واللبس .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن أي قضية تطرح متجردة من دليل ، عارية من بينة لا تعدو كونها مجرد وهم أو دعوى أو زيف يزج بها في ساحات الفكر ، وهي لا ترقى إلى درجة الإقناع ، ولا تنهض دليلاً على صدق مدعيها ، بل إنها تؤخذ دليلاً على تخبطه وإفلاسه .

ويريد القرآن الكريم أن ينأى بقضايا الدعوة الإسلامية عن هذا الإطار ، إذ أن هذه القضايا ومضامينها ليست من قبيل الأفكار التي تطرح لتستقطب عدداً يتضاءل أو يكثر ، وإنما هي دين يجب أن يدان به .

وليس الدين كالأفكار .

فالدين في معرض الإثبات يفتقر إلى بينات أقوى ، وحجج أنصع ، وأدلة أكثر مضاءً وقطعاً ، فقبول الدين يجب أن يكون قطعياً لا احتمالياً ، أما الأفكار فقد يكون قبولها نسبياً ويتطرق إليها الاحتمال ، وقد تعارض مثلما يعارَض الدين ، لكن أدلة الدين إذا صدقت– وأدلة الدين الصحيح صادقة – لا تقوى معارضتها.

والمدعو إليه هو الدين بمضامينه العقدية والتشريعية والأخلاقية .

ومما يدخل في المضامين العقدية الذات الإلهية العلية ومتعلقاتها

مـــن الأفعـــال المعجزة القاهرة الخارقة التي تبين قدرة الخالق سبحانه وإبداعاته وتقديره وتصريفاته لقضائه وقدره في مخلوقاته .

ومـــن الصـــفات المنزهة لله سبحانه عن التغير والتماثل والندية والشبيه والنظير .

ومنها مسائل النبوات والرسالات ، وما يجب توافره في الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، وما يجب توافره في الرسالات ، وما تقتضيه الحكمة الإلهية في تنزيه كل من هذا وذاك عما لا يليق به

ويدخل فيها القدر والغيب بقضاياه الدقيقة التي لا يمكن أن يطلع عليها أحدٌ إلا بإذن الله .

حقائق الكون ومتاهات العقول :

ومن ذلك ما يتعلق بقضية الخلق ونشأة الكون والمآل والمصير بعـــيداً عن متاهات الفلسفة ، وإغرابات أربابها ومنظِّريها التي ضللت العقـــل ، وجنحت به عن الصواب والجادة في كثير من مباحثها التي أضـــاعت كثيراً من الجهد والوقت بدون ثمرة طيبة ورؤية يقينية ، بل أغربت في الرؤى الطبيعية والمادية للخلق والنشأة ،وخضعت لمهاترات التجريـــب والحـــس ، ودعاوَى العلم والمنطق ، إذ أقحمت العقل في دوائـــر غيبـــية كـــان لابد أن يرجع منها خاسراً لمحدودية مداركه ، ولقصور وسائل إدراكه ، وازدادت بها ظلمات النفس ، ومتاهات الفكر ، وحيرة العقول ، وضآلة الفهوم .

ولمـــا كانـــت هـــذه المســـائل لا يمكن التيقن بطبيعتها وكنهها ولا الإيمـــان بهـــا إيماناً نقياً خالصاً من الشوائب إلا بالخبر الصادق المعصـــوم جـــاء الوحـــي الإلهي ليخبرنا عما تضاربت فيه العقول ، وتاهت في إدراكاته الفهوم ، والتبس فيه الحق بالباطل ، والشك باليقين ، وتلاشت فيه الفواصل بين النور والظلمة .

جـــاء ليخـــبرنا عما كان ، وعما سيكون ، وما لم يكن قد كان كائناً كيف يكون ، فأخبرنا عن الخلق والنشأة والمآل والمصير ، فبين أن الله تعـــالى هـــو الخالق وليس قوى الطبيعة أو المادة ، بل بين أن الطبيعة مخلوقة مربوبة مفتقرة إلى من يسيرها ، وأن المادة تعجز عن إيجاد نفسها ، وأن الله تعالى هو الذي خلقها .

﴿ إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [١]

وبيـــن غاية الإنسان في الحياة ، وهي عمارة الكون بدين الله تعالى ، وأن مصـــيره المـــوت ، ومآله البعث بعد الموت للحساب عما قدم في حـــياته [٢] فإما جنة أبداً – ونسأل الله ذلك – وإما نار أبدا .. ونعوذ بالله من ذلك .

وبهذا وفر للإنسان الجهد والوقت وحفزه للعمل والاجتهاد والطاعة .

---

[١] سورة النحل (٤٠) .

[٢] ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة ونعوذ به من عاقبة الحساب .

ومـــن المضامين التشريعية في الدين (المدعو إليه) ما تستقيم بـــه علاقة الإنسان بربه وبأسرته وبالمجتمع من حوله ، وما تستقر به المجتمعات ، وتؤسس عليه الدول ، وتنهض به الحضارات ، ويترقى به الإنسان في الفكر والمعرفة ، وغير ذلك .

هـــذا وقد جاء منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ليقرر كـــل هـــذه القضايا مشفوعة بدلالات المنصوص والمنطوق ، فتلقفتها الـــنفوس السليمة بالقبول ، وقنعت بها العقول الصحيحة ، واستقر بها الإيمان .

ثانياً : ضبط الإدراك والوعي :

مـــن مقاصـــد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ضبط إدراك المدعـــو ووعـــيه ، وهذا مقصد سامي يهدف إلى ترشيد الفكر الإنســـاني ، وضـــبط الوعي الإدراكي للمعنويات والمحسوسات على السواء لفهم حقائق الأشياء ، واستكناه مهايا القضايا على طبيعتها .

ولو تأملنا آيات القرآن الكريم على اختلاف مضامينها وأساليبها ســـنجدها تتمحض لهذا المعنى ، مع تميزها بعدم انحسارها في قضية بذاتها . فهي تمتد لتشمل شئون الحياة الدينية ، والاجتماعية ، والنفسية والسياسية ، والاقتصادية .

وكذا الإشارات العلمية عن الحياة والكون [١] لتؤصل لإدراك واع ، وفكر يقظ ، وعقل ناهض .

وإذا نظرنا لطبيعة عمل العقل أدركنا أنه من الطبيعي أن يفكر العقـــل ويتأمل ، ويدرك ويقارن ، ويقيس ويناقش ، ويميز ويفاضل ، ويقبل ويرفض ، ويثبت وينفي، ويقر ويعترض ، وينشئ أدلة ، ويبني مقدمات ويستخلص نتائج وهكذا .

فالعقل (قوة أفرد الباري تعالى بها النفس الإنسانية ، وهو قادر على إدراك المتناقضات والمتقابلات) [٢] .

هـــذه هي الظاهرة الطبيعية للعقل البشري ، لكن القضية ليست فـــي إثبات تلك الظاهرة أو نفيها ، وإنما القضية في ضبطها وتوجيهها فكـــل العقول تدرك ، لكن ليس كل ما أدركته العقول وما تدركه يكون محل قبول مطلق ، وهذا خاضع لتوفر الضابط ومدى فاعليته ، فما

---

[١] جواهر القرآن : الإمام الغزالي ، تعليق : خليل إبراهيم (ص ٣٠ ، ٣١) دار الفكر اللبناني ، بيروت ١٩٩٢م .

[٢] العقلانية في منهج ابن حزم : د / محمد السيد الجليند ، نشر بحولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية (ص ١٦٨) العدد ١٢ ط ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م . وقد وضح فيه موقف ابن حزم من إدراك العقل وإدراك الحواس حيث أثبت استقلالية العقل بالإدراك التام فيما يستقل بإدراكه وبين قصور مدركات الحواس ، ومع ذلك فقد جعل العقل في مداركه محكوماً بالنص ، ولم يثبت له استقلالية عنه .

وراجع رسالة الرد على الكندي لابن حزم (٤ / ٣٦٠) تحقيق إحسان عباس ، ط ١٩٦٠م وما ذهب إليه ابن حزم لا يعني في نظرنا أن العقل في غنى عن إدراك الحواس ، بل إنه يعتمد عليها في كثير من المدركات الحسية ، على أننا لن نخوض البحث في هذه المسائل الفلسفية فنسوق آراء المؤيدين والمعارضين ، فهذه مسألة يشتغل بها المتخصصون في الدراسات الفلسفية أو في علم الكلام .

الذي يقارنه العقل ، وما الذي يناقشه ، وما الذي يقبله ويرفضه ، وما الـــذي يثبـــته وينفيه أو يقره أو يعترض عليه ، وما الذي ينبري العقل لتأييده بالحجج والمنطق والأدلة والبراهين ؟

تلك هي القضية .

والـــتاريخ الإنساني من خلال القصص القرآني الكريم يقدم لنا أطرافاً من التمايز بين البشر تمحورت قضيتها حول الإدراك والوعي من حيث طبيعته ومصدريته وأهدافه وغاياته وضوابطـــه ، فبينت أن ثمة ضوابط قد توفرت وتحققت مصداقيتها ، وأخرى قد اختلت ، وأن ثمة منابع للإدراك قد جفت ، فجافت المنطق ، وتناقضت مع المعقول وجانبت الحق ، وركنت إلى الباطل .

على أن ثمة منابع أخرى للإدراك والوعي قد أينعت وآتت أكلها .

ولعـــل العلة الحقيقية لهذا التمايز الإدراكي تكمن في مصدرية الضـــابط إن توفـــر ، فهناك ضابط يفرضه الوحي الإلهي ، وضابط تفرضـــه التقاليد والأعراف والمبادئ والأفكار والفلسفات مع ما بينها من تناقضات واضحة ، واختلال سافر ، وهناك أهداف لعقيدة تأسست على الوحي الصادق ، وأهداف لعقائد تأسست على التقليد والعرف .

ويؤكد هذا ما نبه إليه د / القرضاوي من خطورة :

(١- قصور العلم والفكر .

٢- ســـوء النـــية والقصـــد) [١] على الأفكار والمعتقدات والتفسير والتأويل .

ولعلنا لو تأملنا هذه الآيات ندرك صدق هذه المعاني .

قـــال الله تعالى ﴿ **ذلكـــم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير** ﴾ [٢] .

وقوله تعالى ﴿ **ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلـــى العزيـــز الغفـــار . لا جَرَم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنـــيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب الـــنار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوِّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ [٣] .

وقولـــــه تعالى ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم ســـمعاً وأبصـــاراً وأفـــئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفـــئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون** ﴾ [٤] .

---

[١] بحث بعنوان المنهج الأمثل في التفسير : د / يوسف القرضاوي ، نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ٤٥) العدد (٨٣) ذو الحجة ١٤١٧هـ / فبراير ١٩٩٧م .

[٢] سورة غافر (١٢) .

[٣] سورة غافر (٤١ – ٤٤) .

[٤] سورة الأحقاف (٢٦) .

وقولـــــه تعـــالى ﴿ **الذيـــن كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمـــالهم . والذيـــن آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمـــد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ (١) .

وقولـــــه تعـــالى ﴿ **أفمـــن كانعلى بينة من ربه كمن زين له ســـوء عمله واتبعوا أهواءهم** ﴾ (٢) .

نظرة تأملية في هذه الدلالات :

١ – تضعنا النصوص الكريمة أمام جملة من القيم ، وأوجه من المتقابلات ، وصور من التفاوت الإدراكي والوعي .

٢ – أشـــارت هـــذه النصوص الكريمة إلى خطورة ذلك على الاعتقاد ، وقلب أوجه الحقيقة وتشويه قيم الجمال في العقائد الصحيحة وهـــذا مدلـــول قولـــه تعالى " ذلكم بأنه إذا دُعِي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا " .

٣ – وهنا تشير الدلالات إلى أن سبب ذلك هو اختلال الضابط القائم على سوء النظر، وضيق الأفق ، وضحالة الفكرة ، وفساد الذوق

---

(١) سورة محمد (١ – ٣) .

(٢) سورة محمد (١٤) .

إنهـــم يكفـــرون بالأحديـــة الإلهية ، ويتخذون الشرك عقيدة !! مع أن صـــحة الـــذوق ، وقـــوة الاعتقاد تدفعك إلى أن تؤمن بالواحد وتكفر بالاثنين .

صور صارخة من التناقض أخرجتهم من دائرة " المعقول" إلى دائرة " اللامعقول " .. من المتصوِّر إمكانه إلى المستحيل تصوره .

٤ – ومنشـــأ هذا التيه وتلك الحيرة هو تطويع وسائل الإدراك لهـــوى المـــدرك ، وتلـــك آفة خطيرة أوقعتهم في ضروب من الشك وأفانيـــن من الإشراك ، وقد دلت على ذلك الآية الكريمة " وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنه سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهـــم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله " (١)

وهذه إشارة بليغة من إشارات الآية الكريمة ، إذ بينت أن ذلك إنما وقع منهم وقت جحودهم وإنكارهم ، إشارة إلى أن ذلك كان سبب تعطـــيلهم لوســـائل إدراكهـــم ، فقـــد حال الجحود بينهم وبين الرؤية الواضحة المستنيرة .

٥ – وجاءت آيات أخرى لتعقد مقارنات بين اتجاهين متناقضين مـــن حيث وضوح الفكرة وغموضها ، وسلامة الذوق وفساده مركزة على الأسباب والعلل ، ومعولة على أهمية الضابط في استقامة الرؤى

---

(١) سورة الأحقاف (٢٦) .

العقدية ، ووضوح الأفكار والمعاني .

وقد دل على ذلك قوله تعالى :

﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ وقوله تعالى **﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾** .

وهذه الآيات الكريمة وكثير غيرها توضح أهمية وجود الضوابط لضبط الإدراك وتكوين رؤية واعية للذات والرسالة والغاية، وتكوين رؤية واضحة للأسباب والعلل التي تؤثر تأثيراً مباشراً في سلامة الذوق وفساده ، وتحليل ظواهر الانحراف وعوامل الانضباط وقوة الأفكار وضحالتها ، وغنى الرؤى والتصورات ونضوبها ، وقوة العقيدة وتهافتها .

ولا يتأتى هذا إلا بحسن الفهم وقوة الضابط .

ومما يؤيد هذا ما قاله الإمام محمد عبده (والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد ، لا تفريق في القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فنزعات شياطين ، أو شهوات سلاطين ، والقرآن الكريم شاهد على كل بعمله ، قاض عليه في صوابه وخطئه) [١] .

---

[١] رسالة التوحيد الإمام محمد عبده (ص ٢٣) دار المنار المصرية ، ط (١٥) ١٣٧٢هـ . ومنهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة . أحمد بن عبد الرحمن الصويان (ص ١٧) مطابع أضواء البيان ط (٢) ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م .

من ثم يرتقي العقل إلى قمة النضج ، والوعي الإدراكي ، فيفهم بواطــن الأمــور وظواهرها ، وأسرارها ، ويكشف عن عللها وأوجه صــحتها ، وشــارات فسادها ، في حراسة النص الحكيم ، والضابط الأصيل .

وبهــذا يصير (عقلاً واعياً بطاعة الله فيأتمر عن طواعية واختيار ، بما يأمر الله به ، وينتهي عما نهى عنه ، لا عقلاً منفصلاً عن خالقه ، مجرداً عن دواعي الحياة التي خلقها الله ، أعني – والقول للمحاسبي– أنه يظل جوهراً قائماً بذاته يصلح أن يكون حكماً في كــل شئ) [١]

(فمــادة العقل وردت بصورة ملحوظة في القرآن الكريم وأكثرها بصيغة الفعل المضارع على سبيل الاستفهام ، وكل آية من هذه الآيات التي تنتهي بهذه الصيغة الفعلية ، تطرح قضية فكرية معينة ، تقتضي مخاطــبة العقــل في ظاهر سياقها ، لأنها تتعرض لأمور في الطبيعة تدعــو إلى التأمل والنظر والتمعن ، والصيغة الفعلية تدل على حدث وتتــبع ومعايشــة ، ومــن هنا فإن القرآن الكريم كرم النزعة العقلية الصــافية الواضحة تمام الوضوح ، وذلك عندما خاطب العقل مطالباً بالتأمل في آيات الكون) [٢] ، ليس فقط في الكون المنظور ، وإنما

---

[١] العقل وفهم القرآن للحارس المحاسبي ، تحقيق حسين القوتلي ص (١١٩) طبعة دار الكندي ، ط (٣) ١٩٨٢م .

[٢] النفس والروح في الفكر الإنساني وموقف ابن القيم منه . د / يوسف محمود محمد ص(١٤٦) ، دار الحكمة . قطر ، ط (١) ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

فيما أثاره من قضايا الغيب ، ومدى قدرة العقل على إثباتها عن طريق القياس والقطع بالإمكان .

(إنـــه يـــتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف على ضوئه بضع خطوات مجرى الحوادث المقبلة ، جاعلاً الشاهد من هذه مقياساً للغائب من تلك ، ثم يصدر فيها حكمه محاطاً بكل تحفظ وحذر قائلاً : " ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ولم يقع ما ليس في الحسبان " . أما أن يبت في الحكم بتاً ، ويحدده تحديداً حـــتى فـــيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية ، ولا تلوح منه أمـــارة مـــن الأمارات الظنية ، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين : إما رجـــل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه صدق أو كذب ، وذلك هو دأب الجهلاء والمتنبئين من العرافين والمنجمين ، وإما رجل اتخذ عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده وتلك سنة الأنبياء والمرسلين) (١) .

وما كان للعقل أن يتجه هذا الاتجاه الإدراكي إلا في ظل النص الإلهي المعصوم ، وما كان له بمعطيات الغيب علم إلا بإخباره ، لكن تفهـــم هـــذه القضـــايا ومعرفتها عن طريق الاستدلال بالقياس والتأمل والـــنظر والقطع بالإمكان هو مناط عمله ، وليس إنشاء معارف الغيب فهو أعجز من ذلك .

---

(١) النبأ العظيم : د / محمد عبد الله دراز (ص ٤١) مرجع سابق .

والمقصد من ذلك ضبط ملكات التفكير والإدراك العقلي الواعي للاستبصـــار بحقائق الدين ، ودقائق قضاياه ، حتى لا يتيه أو يضل ، وهذا واحد من مقاصد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم .

ثالثاً : ضبط منهج الجدل في الإثبات والنفي :

لا مرية أن العقول متفاوتة من حيث القيمة الإدراكية ، فمنها ما يـتجاوز " أزمـة الفكـر" ومنها ما يهبط إلى " فكر الأزمة " وما بين هاتين الدائرتين مؤثرات فكرية ، ومثيرات جدلية تدفع أطراف الخلاف إلى جدل محتدم سواء أكان في إطار ضيق أم في إطار منفتح الآفاق ، يشمل كثرة من القضايا محل الخلاف أو ينحصر في قضية بذاتها .

وكما أن العقل متفاوت من حيث القيمة الإدراكية ، فهو متفاوت كذلـك مـن حيث الحكم على تصوراته ومداركه ، وتصورات الآخر ومداركـه ، وقـد يكونـا على طرفي نقيض في المعاني والأفكار ، والـرؤى والتصورات .. ومما لا شك فيه أن هذا التناقض قد يفرض عليهما حتمية الحوار والالتقاء حول نقطة فاصلة بين القضايا الخلافية لإزالـة صـور التناقض والقضاء على مظاهر الغموض الظاهر في الأفكار ، واللبس الواضح في المعاني .

علـى أن مشـكلة الأفكار من اليسير حلها ، لأنها لم تصل بعد لدرجـة الاعتقاد ، لكن مكمن الخطورة في احتدام الجدل حول الأديان والمعتقدات ، وخاصة من قبل أطراف تعتقد صدق معتقدها ، وهي

غارقة في أخطاء تتناقض مع صريح المعقول والمنقول ، وتتجافى مع المنطق ، وتعارض الأدلة والبراهين الصادقة !!

فهذا يثبت وذاك ينفي ، وكل يعتقد صدق ما يذهب إليه ، وخطأ ما يذهب إليه الآخر ، ويحتدم الجدل بينهما ، ويطول أمد النزاع .

وأيـاً مـا كـان فإن القرآن الكريم قد أثار القضية بطرفيها ، إضـافة إلـى تركيزه على مثارات الخلاف ، والدافع إليه ، وأثار في العقـول قضـايا واقعـية ومنطقية صارت لجلائها ووضوحها إدراكاً بديهياً .. ولكـن لا ينكر الشمس إلا من بعينيه رمد .

وقـد ركـز القرآن الكريم على ضرورة توفير نقاط التقاء بين المتخاصـمين أو المتخالفيـن ، وناشـدهم بضـرورة توفير الأجواء المناسبة للحوار، والبحث عن عوامل إنجاحه ، والخروج من الأزمة ، وقطع سبل الخلاف .

ثـم تحدث عن ضرورة توفر جملة من الآداب العامة يمكن أن نطلـق عليها " آداب الحوار" يتخلق بها كل من المتحاورين وذلك كي لا يـتحول الحـوار مـن حوار حول الأفكار والمعتقدات إلى انتصار للذات وإعلاء للهوى ، وإزكاء للتعصب .

وبدلاً من أن يكون الجدل منهجاً لإثبات الحقيقة ، طوعه بعض المغرضـين إلى مزاعم لإثبات الباطل ، ومنهم من تطاول على الذات العلية دفاعاً عن أهوائه ومزاعمه ، ومنهم من تطاول على الأنبياء

واتهمهم بالسفه والجنون ، والقرآن مترع بالشواهد والأدلة التي توضح هذا وتبينه .

ومن ذلك قول الله تعالى :

١ - ﴿ **فمن حاجك فيه** [١] **من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين . قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾ [٢].

٢ - وقوله تعالى ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ [٣] .

---

[١] مرجع الضمير إلى نبي الله عيسى عليه السلام .

[٢] سورة آل عمران (٦١ - ٦٧) .

[٣] سورة غافر (٣٥) .

٣ – وقولـــه تعـــالى ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سـلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ (١) .

٤ – وقولـــه ﷻ ﴿ ألـــم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنـــى يصـــرفون . الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون . إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم فـــي الـــنار يسجرون .ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قـــالوا ضـــلوا عـــنا بـــل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافريـــن . ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴾ (٢) .

٥ – وقوله ﷻ ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عـــدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ (٣) .

٦ – وقوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبيـــن . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما أراك اتبعـــك

---

(١) سورة غافر (٥٦) .
(٢) سورة غافر (٦٨ – ٧٥) .
(٣) سورة الأنعام (١٠٨) .

إلا الذيــن هــم أراذلــنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظــنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنُلزِمُكموها وأنتم لها كارهون ﴾ (١) .

وفي النهاية قالوا لنوح عليه السلام :

٧ - **﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنــت مــن الصــادقين . قــال إنمــا يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾** (٢) .

٨ - **﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾** (٣) .

٩ - **﴿ يجــادلونك فــي الحــق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾** (٤) .

تأملات دلالية في هذه الآيات

حتى لا يتحول المذهب إلى دين والهوى إلى معتقد

لعل من أبرز صور الدلالة في هذه الآيات الكريمة ما يلي :

---

(١) سورة هود (٢٥ – ٢٨) .
(٢) سورة هود (٣٢ ، ٣٣) .
(٣) سورة غافر (٥) .
(٤) سورة الأنفال (٦) .

١ – إن الجدل قضية قديمة قدم التاريخ دفعتها إلى حيز الواقع عقـــائد وأفكـــار يتسم بعضها بالصدق والحق واليقين ، ويتسم البعض الآخر بالإفك والضلال والبهتان ، يطويها الشك والحيرة .

(مـــع ضرورة الوضع في الاعتبار أن اختلاف الآراء طبيعة بشرية وفطرة إلهية) (١) وقد دلت على ذلك نصوص القرآن الكريم .

٢ – إن الانتصار الساحق الهادي والبيِّن في حلبة الصراع بين الأفكار والمعتقدات، كان لتلك التي قامت على اليقين، وتمحضت للحق وخلصت للصدق ، وقامت على العدل .

٣ – ومع تقرير القرآن الكريم للواقع الجدلي الذي عايشته الأمم والجماعـــات والأفراد ، فإنه عاب عليهم الجدليات الهزلية التي تعتمد علـــى تـــرهات الفكر ، وطلسمة المعاني ، وتعويق العقل عن الإدراك الناضـــج والواعـــي الـــذي عاق – ومازال يعوق – مسيرة النهوض الإنســـاني في جوانب الاعتقاد وميادين الفكر ، وتشقيقات الفلسفة التي أغـــرقها التجريب والحس ، وأعيتها الماديات والطبيعيات ، فرفضت معطـــيات الوحـــي الإلهـــي الذي امتدت جذورها من القرآن الكريم ، وثمارها من حكمة النبوة .

---

(١) لا إنكار في مسائل الخلاف : د / عبد السلام مقبل المجيدي (ص ٤٨) كتاب الأمة ، السنة ٢٣ العدد ٩٤ ربيع الأول ١٤٢٤هـ .

٤ – إن القـرآن الكريم قد بين – إضافة لما سبق – جملة من آداب الحـوار والجـدل، وأوجـب ضرورة توفرها لإنجاح أي حوار يطرح أو جدل يدور بين المتحاورين أو المتجادلين .'

هذا إضافة إلى إرساء قواعد جدلية [١] وحوارية تضبط مسار الجـدل والحـوار لترشيد الفكر ، والنهوض به ، وتخليصه من مآسن الفلسـفات ، وغياهب الظلمات التي تاهت فيها العقول ، وتحيرت فيها الألباب ، ولإرشاد العقل إلى الحق سواء هذا الذي عمي عليه أو ذاك الذي أراد تأكيده وترسيخه وتقريره .

ومن هذه القواعد وتلك الآداب ما يلي :

١ – الـبعد عـن السـب والقـذف والتشهير[٢] إبقاء لسكون المشـاعر ، وسـداً للذرائع أمام ردود أفعال لا تتورع عن قذف أقوى وسب أعنف ، ولو كان أصحابها مخالفين في الاعتقاد .

وهـذا دلالة قوله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسـبوا الله عـدواً بغـير علم) ، (فقل تعالوا ندعوا أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)، فإن الدعوة إلى الله تعالى منزهة عن هذه السفاسف والترهات ، ولأنها تعرض

---

(١) واقصد الجدل هنا البنّاء منه والهادف وليس الجدل المذموم : الجَدل من أجل الجدل ، فإن الإسلام يمقته ، بل ويحرمه .

(٢) قطف الأزهار في كشف الأسرار للسيوطي ، تحقيق : د / أحمد الحمادي (٢ / ٩٢٤) وزارة الأوقاف القطرية ، ط (١) ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

بطـــريقة هادئـــة ومنهجـــية عاقلة ، تثير في العقل دلالات المنطق ، وبراهين الواقع ، مترفعة على سوط التقاذف والسباب .

ولا يـــبقى بعدمـــا ظهر من هذه الدلالات والبراهين إلا التحاكم إلـــى الله تعـــالى لتأييد المصيب ، وبيان خطأ المخطئ بالمباهلة (ثم نبتهل) .

٢ – حســـن الخلـــق الـــذي يجـــب توفره في المتحاورين أو المتجادلين لإفصاح الحوار والجدل ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن** ﴾ (١) ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ (٢) .

٣ – افتراض الخطأ في كلا أطراف الحوار أو الجدل وإحالته إلـــى الواقع لتحقيقه أو نفيه ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضـــلال مبين** ﴾ (٣) .

مـــع ثقة الطرف المحق بصدق معتقده ، وقوة حجته ، وقطيعة أدلـــته ، وذلك حرصاً على ألا ينفض الحوار أو الجدل قبل أن يعقد ، وللحيلولة دون أن يسد التعصب منافذ الحوار وإمكانات التلاقي .

ومـــما ينبغي اعتباره (أن محاولة البعض رفع الخلاف – فيما يختلف فيه المسلمون – وجمع الناس على رأي واحد – هو بالطبع رأيهم –

---

(١) سورة العنكبوت (٤٦) .
(٢) سورة النحل (١٢٠) .
(٣) سورة سبأ (٢٤) .

مـــع وجـــود الخـــلاف وأسبابه منذ عصر الصحابة ، بل منذ عصر النـــبوة ! فإن هذه المحاولة تزيد الخلاف حدة ولا تنقصه .. فالخلاف بين المسلمين لا يحدث في أصول العقيدة والشريعة ، وإنما يحدث في أمور ثانوية لا يضخمها إلا أصحاب الفكر المختل) [٢] .

علـــى أن الإمام محمد عبده قد ذهب إلى حصر أوجه الخلاف بين الفرق الإسلامية في (فروع الأحكام لا في أصول العقائد) [٣].

فمحاولـــة تضـــخيم الخـــلاف بين المسلمين مذمومة ، كما أن محـــاولات مصادرة الآراء المطروحة على الساحة مذمومة ، فلتخلف العقـــول ما شاءت طالما لا تصطدم بنص أو أصل ، وطالما لم يستغل الخلاف لتفريق المسلمين .

٤ – أن تنصـــب الحجج من بينات الواقع ويقينيات العقل التي يصـــدقها الوحـــي الإلهـــي لا مـــن دوافع الهوى ، ومزاعم الباطل ، ودعاوى البهتان والافتراء .

٥ – لفـــت الأنظار إلى أن القضايا المثارة في النطاق الديني ، وخاصة منطق الدين الحـــق ،إنما هي تكليف إلهي لاستقامة الإنســـان

---

(٢) نظرات في فقه الشيخ الغزالي ومرتكزاته : د / يوسف القرضاوي . بحث نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ٤٨ ، ٤٩) العددان ٧٥ ، ٧٦ السنة ٢٩ رجب ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، تحقيق : د / محمد عمارة (٣ / ٣٥٨) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط (١) ١٩٧٢م .

المكلف ، وتحقيق السعادة له في الدنيا والآخرة ، وتحقيق للأمن والسلم الاجتماعيين ، وإرساء للضوابط التي تكفل تحقيق ذلك ، والتي غابت عن كثير من المذاهب الفلسفية ، التي قامت على نظريات المنفعة والمتعة (أو تلك التي قامت على اتجاهات أحادية النظرة ، كمعتقدات الدهرية – قديماً – في النشأة ، والمادية اليهودية التي صورت ذلك تصويراً مادياً ، حاشاه ، ومعطيات الحضارة العربية التي رفضت تجاوز المادة إلى الروح ، والمشاهد إلى الغيب ، فتقاصرت نظرتها إلى الكون عن إدراك الخالق سبحانه ، وانحصرت إدراكاتها في الدنيا فأنكرت الآخرة ، والمذاهب الإلحادية التي أنكرت أن يكون للخلق إلهاً .

إنها لفت للأنظار إلى الدين الحق الذي جاء بنظرة ثنائية راعت الروح والمادة ، والدنيا والآخرة ، والنشأة والفناء ، والمشاهد والغيب على أن هذه الثنائية تعني التفاعل والانسجام لا المقابلة والتناقض والتصادم ، وهي تفسر كون الإسلام وحدة ثنائية القطبية) [١].

٦ – اشترطت الآيات الكريمة ضرورة توفر عنصر العلم في الجدل البناء ، بمعنى ضرورة تيقن الطرف المجادل من صحة القضايا المثارة للجدل حتى يتم تهيئة الأجواء لإنجاح الجدل والخروج به عن

---

(١) راجع : الإسلام بين الشرق والغرب : علي عزت بيجوفيتش (ص ٢٩٣ – ٣٠٣) ومقدمة المترجم محمد يوسف عدس (ص ١٨ – ٢٠) مؤسسة العلم الحديث . بيروت ، ط ١ ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

دوائـــر السفســـطة ، وإلا أصـــبحنا سفوسطائيين جدليين .. منتصرين للرؤى ، والتصورات التي تتمخض عن الهوى ، وتندفع بالتعصب .

فمن المفترض أن يجادل الإنسان فيما يعلم ، وألا يجادل فيما لا يعلم (هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

وفـــي هـــذا التذييل تصريح بأهمية التسليم لما جاء من عند الله تعـــالى ، لأنـــه هـــو وحده مصدر الحقيقة ، وهو تعالى مانح الإنسان القـــدرات والوسائل والأدوات الإدراكية التي تمكنه من إبصار نفسه ، وإبصار الكون من حوله ، ويمكن قياس الغائب على المشاهد ، والبعيد على القريب ، وما قد لا يبدو في نظره ممكناً على ما بدى إذا ما تعلق بقدرة الله الحق وإرادته واختياره ، واعتبار مراعاة الفروق في القُدر ، وخاصـــة الفـــوارق بين قدرة المخلوق وقدرة الخالق ، وكذلك مراعاة الفـــوارق بيـــن طبـــيعة الأفعال لإدراك مدى قصور الفعل البشري ، وهيمنة وقادرية الفعل الإلهي .

وإذا مـــا وضـــعنا في الاعتبار أن هذه الآية وردت في سياق الجـــدل حـــول عقيدة نبي الله إبراهيم عليه السلام ، وطبيعة المسيح عليه السلام من حيـــث بشـــريته وادعاء ألوهيته ، أدركنا خطورة تجاهل هذه الفوارق على الاعتقاد ، وأدركنا ما يلي :

أ – أن ذلـك كان سبباً في عدم قدرة النصارى على استيعاب فكـرة الإنسـان الكـامل (النبي) ، وأنهم أخالوا أن من بلغ الكمال لا يكـون إلا " إلهـاً " فـاندفعوا إلى خلع فكرة الألوهية على البشرية الكاملـة ، والارتقاء بالبشرية إلى الألوهية ، فتصوروا المسيح إلهاً ، واتخذوا ذلك عقيدة فيه ، مع أنهم يعلمون تمام العلم أنه بشر مثلهم .

ولـو أنهـم ارتقـوا بأنظارهم خارج تلك الدائرة التي حصرِوا أنفسـهم فـيها ، ولو أنهم استخدموا وسائل الإدراك استخداماً دقيقاً ، وقنعوا بمعطيات الوحي الإلهي المنسجمة مع العقل – إذا ما صدق – لعلهـم لـو فعلوا ذلك لأدركوا أن ثمة واهباً لهذا الكمال ، وأن طبيعة البشر لا يمكن أن ترقى إليه إلا بوهب ومنح ، وإعانة وتوفيق إلهي .

وهكـذا جادلوا في المسيح عليه السلام ، إلا أن جدالهم فيه ، وإن عبر عـنه القرآن الكريم بأنه كان على علم ، فلا يُقصد به العلم الصادق ، وإنما يقصد به مجرد ورود قصصه في كتبهم التي بين أيديهم وعلمهم بذلـك ، علـى مـا فيها من تحريف وتبديل ، أو أنهم كانوا على علم بحقيقة ذلك لكنهم (خالفوا مقتضاه وجادلوا فيه بالباطل) [١] .

ومـن جانب آخر فلم تكن المحاجة في عقيدة إبراهيم (لترقى إلى كونها شبهة ، فضلاً عن كونها حجة ، لأن الجدال على خـلاف

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن : لأبي الطيب البخاري (٢ / ٢٦٢) مرجع سابق .

ما يعلم من الأحوال عناد وطغيان) [١] .

وقد جادلوا في عقيدته مع أنه لم يكن في زمنهم ، ولم يكن لهم من الوسائل ما يؤكدون بها ذلك .

ب – كما ندرك أن من جادل في عقيدة إبراهيم عليه السلام ألبس حقاً بباطل ، وباطلاً بحق ، وتخبط اعتقاده ، واعوج فكره ، وقد أشار ابن كثير إلى هذا بعدما ذكر موقف نصارى نجران وأحبار اليهود من إبراهيم عليه السلام ، إذ قال:(اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل الله تعالى على عبده هذه الآيات التي تدحض ما يقولون بالحجة البالغة ، فإن التوراة والإنجيل أُنزِلا بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً) [٢] .

أضف إلى ذلك أن (اليهود منسوبون إلى يهودا أو يهوفا ، وهو عندهم اسم الله الذي تصوروه وصوروه على هواهم ، فهو إلههم وحدهم دون غيرهم من أصناف البشر ، أما النصارى فمنسوبون إلى يسوع الناصري أو المسيح ، ومن ثم فلا يمكن أن ينسب إبراهيم إلى

---

[١] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي (٤ / ٤٥١) مرجع سابق .

[٢] تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ /٣٧٢) مرجع سابق ، دار التراث . بدون تاريخ .

شئ كان بعده) [١] .

٧ – إن مـــن أراد طمـــس معالم الحق زوراً وبهتاناً وافتراءاً ورمـــياً بالباطل ، تكفل الله تعالى بعقابهم ، لأنهم تعمدوا تضليل الخلق وتشويه الحق ، وتعمدوا صرف الناس عن عبادة الله الواحد ، ولبسوا عليهم دينهم وأفسدوا فطرهم .

وهـــذا دلالـــة قوله تعالى (وجادلوا بالباطل ليُدحِضوا به الحق فأخذتُهم فكيف كان عقاب) .

ومثل هذا الصنف من الناس متكبر مغرور .

٨ – إن مـــن جـــادل في الحق بعد بيانه ووضوحه غير متزن عقدياً ، ومضطربٌ نفسياً ، وغير منضبط عقلياً .

ومثله كمن يجادل في الشمس وهو يراها بعيني رأسه .. أو من يـــنكر ذاك الماء وقد اغترفه بكفيه .. أو من يمسك بيده ويقول هذه يد عمرو وليست يدي !!!

وقـــد كـــان ذلـــك مثار سخرية القرآن الكريم ، وإنكاره على أولـــئـــك الذين جادلوا في الحق بعد ما تبين قوله تعالى (ويجادلونك في الحق بعدما تبين) .

---

[١] الإسلام في عشرين آية : د / حسين مؤنس (ص ٧٧) مرجع سابق .

وهذه إماءة إلى أن الواضح البين لا يتصور عقلاً اختلاف اثنين فيه ، بل إنه لا يجادل في حقيقته عاقل ، ولا يشكك فيه إلا مرتاب .

ومن ثم أوقف القرآن الكريم أمثال هؤلاء أمام تناقضات واقعية صارخة تجردت من العقلانية ، وجافت المنطق ، ونبت عن الذوق ، يبدي هذا لنا مشهد حِواري بين الرسول ﷺ وقومه ، إذ قال تعالى على لسانه ﴿ **ويا قوم مالِي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفرَ بالله وأشركَ به ما ليس لي به علْمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيزِ الغفارِ . لا جَرَم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردَّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ (١) .

وتبدو تناقضات المشهد فيما يلي :

أ – دعوة إلى النار في مقابل دعوة إلى الجنة !!

ب – دعوة إلى الشرك يقابلها دعوة إلى الإيمان !!

ج – دعوة إلى باطل في مقابل دعوة إلى الحق !!

إن الجدل الدائر بين هذه المتناقضات جدل مُقِيت ، لأن دعاة الباطل أرادوا أن يخرجوا منه منتصرين من متناقضات صارخة مع الواقع والمنطق والوحي ، ويحاولون فرض هذه الصورة المتناقضة على

---

(١) سورة غافر (٤١ – ٤٣) .

الواقع العقدي بعدما تبين صدقه ، ووضحت دلالاته ، وقويت حجته.

وهكذا قبَّحت آياتُ القرآن الكريم الجدل عن جهل وضلال ومحض هوى وزيغ ، وأوجبت في منطق العقلاء والمتزنين أن يكون الجدل عن علم ، وهدى ، ويقين ، لا عن تخبط واضطراب ، **فقال** سبحانه وتعالى ﴿ **ومن الناس من يجادلُ في الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب منير** ﴾ (١) .

(فالعلم ، والهدي ، والكتاب المنير ، ثلاثتها هي الطريق إلى المعرفة الحقة في الإسلام ، ويفسر المفسرون " العلم " بالعلم الضروري ، علم الفطرة ، والطبع والغريزة ، ويفسرون الـ " هُدَى " بالاستدلال والنظر ، الذي يهدي إلى المعرفة،و " كتاب منير" بالوحي) (٢) .

ولا مرية أن هذه الطرق المنضبطة للمعرفة يشترك فيها العقل والحواس (٣) والفطرة ، ويضبط ذلك الوحي الإلهي .

---

(١) سورة لقمان (٢٠) .

(٢) العقل العربي وإعادة التشكيل : د / عبد الرحمن الطريري (ص ٨٤) مرجع سابق .

(٣) راجع : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للإمام الأشعري ، تحقيق : محي الدين عبد الحميد (ص ٣٣٩) مطبعة النهضة ، ط (١) ١٩٩٥م . وأصول الدين للبغدادي (ص ٨) دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨١م . والمغني للقاضي عبد الجبار ، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني (ص ٤٥) ط ١٩٦٢م ، وقطف الأزهار في كشف الأسرار للإمام السيوطي (٥٧٤) مرجع سابق .

الخاتمة

لعلـــه قد اتضح من خلال ما سبق قيم منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ، والمتمثلة فيما يلي :

أولاً : قواعـــد التأســـيس والبـــناء المنهجي لعمل دعوي راشد ومـــتوازن يراعي قدرات الإنسان وإمكاناته وطاقاته ومداركه وثقافاته وآماله وتطلعاته .

إنـــه منهج يستوعب الخلاف والتمذهب والاتجاهات ، ويتفاعل مع معطيات العقل الناضج ، وينسجم مع الفِطَر ، ويتجاوب مع النفس الإنسانية ، يستوعب القديم وينفتح مع الجديد .

يراعـــي الأصـــول والثوابث، ويحتوي المتغيرات ، ويستوعب اخـــتلاف الظروف ، ويحطم قيود الزمن والمكان .. يُمكِّن من الجمع بيـــن الأصـــيل والحديـــث ، والقديم والجديد ، أي يجمع بين الأصالة والمعاصـــرة ، ويحث الإنسان على الاستفادة من مواهبه وتجاربه في ميادِيـــن العلـــم النظري والمادي لتدعيم قيم الإسلام ، وإثبات قادريته علـــى العطـــاء المتجدد ، إذ لم يكن متقوقعاً في زمن أو منحصراً في مكـــان ، أو منغلقاً على بيئة ، أو قاصراً على أمة دون أمة ، أو جيل دون جيل .

إنـــه مـــنهج يحـــث على التأمل ، والتدبر ، والتفكر ، والنظر والاستدلال ، والتحليل ، والتركيب ، والبناء ، والهدم .. بناء الصالـــح

وهدم الفاسد .. والقبول والرفض ، والأخذ والرد ، والإثبات والنفي ، في إطار منطومة من الضوابط والقواعد التي تؤصل للحق ، وترفض الباطل ، وتنتصر للحقيقة ، وتثور على التوهم والحدس ، وتحرر إرادة الإنسان ومداركه من طغيان العادة ، وسطوة التقليد والتبعية ، والهوى والنفعية .

إنه منهج قادر على العطاء والتحدي عبر مراحل التاريخ ، ومختلف العصور ، لا يذوب أمام النقيض ، ولا يخضع لفِكَر زائفة أو نظريات فاسدة ، ولا يقبل الذوبان في أتون الصراعات الفكرية العاتية بما تحمله من فلسفات مادية أو إلحادية ، أو مناهج تُؤصّل على التجريب والحس ، وتنكر الغيب .

إنه منهج قادر على احتواء المتقابلات وصهرها في بوتقة واحدة ، ليكوِّن منها نظرة ثنائية إلى الحياة تجمع بين الدين والدنيا ، والحياة والآخرة ، والغائب والمشاهد ، والذات والآخر ، والفرد والمجتمع ، والإنسان والإله ، ليحقق مفهوم العبودية الكاملة لله تعالى، وتجاوز المحدود الحسي إلى آفاق الكون الرحب ، واختراق ذلك إلى الإيمان بما وراء الطبيعة والحياة ، وبما لا يستوعب الحس والمادة احتواءه أو كشفه أو الإحاطة به ، إنه يُوثِّق إيمان الإنسان بإله فوق قوانين الطبيعة وخصائص المادة ، يخضعها ولا يخضع لها ، ويسيرها ولا يتأثر بها ، ويخلقها ولا يفتقر إليها .

ثانياً : المقاصد العامة التي تخلص لإثبات قضايا الدين الحق ، وضـــبط الإدراك والوعي ، والارتقاء بالإنسان فوق الخلاف ، وجعله قـــادراً علـــى تجاوز الأزمات والمآزق النفسية والاجتماعية والثقافية والفكرية ، وفوق ذلك المآزق الدينية التي تنشأ عن فساد في الاعتقاد ، ومـــيْل إلى الإلحاد ، وإغراب في الرؤى والتصورات ، واستغراق في الحيرة والتردد والشك .

وهكـــذا تتضـــح قيم قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكـــريم ومقاصده ، وأهميته لضبط مسيرة الإنسان نحو تقدم حضاري ناضج ، ورقي ثقافي مَعْرِفي واعٍ .

رات
.com

المراجـع

رات
.com

رات
.com

المراجع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : السنة الشريفة .

{ ١ } سنن الدارقطني . دار الفكر. ط ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

{ ٢ } صحيح البخاري . دار نهر النيل ، ط بدون تاريخ .

{ ٣ } صحيح مسلم ، ط دار الكتب العلمية ، ط بدون تاريخ .

{ ٤ } فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني مطبعة الحلبي ١٩٥٩م ، وطبعة دار الغد العربي ط (١) ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

{ ٥ } كشف الخفا للعجلوني ، دار التراث ، بدون تاريخ .

{ ٦ } مسند الإمام أحمد . دار صادر ، بيروت . لبنان . بدون تاريخ .

ثالثاً : المراجع العامة :

{ ٧ } أبعـــاد التكويـــن العقلي للفرد في الإسلام . كارم غنيم . دار الصحوة للنشر ١٤٠٩هـــ .

{ ٨ } إرشـــاد العقـــل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود . دار الفكر . القاهرة . بدون تاريخ .

{ ٩ } إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للإمام الشوكاني ، تحقيق أبي مصعب محمد البدر ، مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت ، ط (٤) ١٩٩٣م .

{ ١٠ } إظهـــار الحق لرحمة الله الكيرواني ، تحقيق وإخراج عمر الدسوقي . وزارة الأوقاف القطرية . بدون تاريخ .

{ ١١ } إظهـــار الحـــق لرحمة الله الهندي تحقيق . د/ محمد ملكـــاوي الرئاســـة العامة لإدارة البحوث العلمية .. السعودية، ط (١) ١٤١٠هـــ .

{ ١٢ } أســـس اليقيـــن بيـــن الفكـــر الديني والفكر الفلسفي. د/ يوسف محمود . دار الحكمة بقطر، ط (١) ١٤١٤هـــ / ١٩٩٣م .

{ ١٣ } الأســـفار المقدســـة في الأديان السابقة على الإسلام . دكتور علي عبد الواحد وافي . نهضة مصر بدون تاريخ .

{ ١٤ } الإسلام بين الشرق والغرب . علي عزت بيجوفيتش . مؤسسة العلم الحديث . بيروت . ط (١) ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

{ ١٥ } الإسلام في عشرين آية . د / حسين مؤنس . سلسلة مكتبة الأسرة . الهيئة العامة للكتاب . مصر ٢٠٠٢م .

{ ١٦ } إسلامية المعرفة . المبادئ العامة . خطة العمل . الإنجازات . سلسلة إسلامية المعرفية . المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠١هـ / ١٩٨١م . بدون مؤلفين .

{ ١٧ } أصول الدين للبغدادي . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨١م .

{ ١٨ } إعادة تشكيل العقل المسلم. عماد الدين خليل . مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ .

{ ١٩ } إعجاز القرآن الكريم للباقلاني . تحقيق أحمد صقر . دار المعارف المصرية ١٩٧٧م .

{ ٢٠ } إعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام ابن القيم ، تحقيق عصام الدين الصبابطي. دار الحديث ط (٣) ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

{ ٢١ } الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي ، تحقيق د / أحمد حجازي السقا . دار التراث العربي بدون تاريخ .

{ ٢٢ } إغاثـــة اللهفـــان لابن قيم الجوزية . المكتبة الثقافية . بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

{ ٢٣ } تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . د / حسن إبراهيم حسن . مكتبة النهضة المصرية ، ط (٧) ١٩٦٤م.

{ ٢٤ } تـــاريخ الإســـلام للإمـــام الذهبي ، دار الغد العربي ، ط أولى ١٩٩٦م .

{ ٢٥ } التحبير في علم التفسير للإمام السيوطي. تحقيق زهير عثمان نور. مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية ، ط (١) ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

{ ٢٦ } تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، دار التراث بدون .

{ ٢٧ } تكوين العقل العربي . محمد الجابر . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ١٩٨٠م .

{ ٢٨ } توحـــيد الربوبية من مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية . دار الحرمين . بدون تاريخ .

{ ٢٩ } تطبـــيق المنهج الرياضي في البحث العلمي عند علماء المســـلمين . محمـــد علي الجندي . دار الوفاء . المنصورة ، ط (١) ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .

{ ٣٠ } الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة.د/ حسن عيسى عبد الظاهر وآخرون . مطابع الدوحة الحديثة المحدودة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

{ ٣١ } الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ، دار الغد العربي ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

{ ٣٢ } جواهر القرآن للإمام الغزالي ، تعليق خليل إبراهيم . دار الفكر اللبناني . بيروت ١٩٩٢م .

{ ٣٣ } درء تعارض العقل والنقل للإمام ابن تيمية . تحقيق محمد رشاد سالم . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط (١) ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

{ ٣٤ } دلائل النبوة للإمام البيهقي . دار النصر للطباعة . المدينة المنورة ١٩٦٩م .

{ ٣٥ } رسالة الرد على الكندي للإمام ابن حزم. تحقيق إحسان عباس ، ط ١٩٦٠م .

{ ٣٦ } رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ، دار المنار المصرية ، ط (١٥) ١٣٧٢هـ .

{ ٣٧ } الرسالة للإمام الشافعي تحقيق أحمد شاكر . مطبعة مصطفى الحلبي . بدون تاريخ .

{ ٣٨ } الرسالة اللدنية من العقود واللآلئ للإمام الغزالي . المطبعة المحمودية التجارية . بدون تاريخ .

{ ٣٩ } السيرة النبوية لابن كثير . تحقيق مصطفى عبد الواحد دار الرائد العربي . بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

{ ٤٠ } شمول النصوص لأحكام أفعال العباد لابن تيمية . تحقيق : صالح المهندي . مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية ، ط (١) ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

{ ٤١ } الطبقات الكبرى لابن سعد . بيروت ١٩٥٨م .

{ ٤٢ } علم أصول الفقه . الأستاذ عبد الوهاب خلاف ، دار القلم ، ط (١٢) ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

{ ٤٣ } العقل العربي وإعادة التشكيل . د / عبد الرحمن الطريري . كتاب الأمة ، ع (٣٥) ط (١) شوال ١٤١٣هـ .

{ ٤٤ } العقل وفهم القرآن للحارس المحاسبي . تحقيق حسين القوتلي . دار الكندي ، ط (٣) ١٩٨٢م .

{ ٤٥ } العقلانية في منهج ابن حزم . د / محمد السيد الجليند نشر بحولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية جامعة قطر العدد (١٢) ط ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

{ ٤٦ } فتح البيان في مقاصد القرآن الكريم للعلامة أبي الطيب البخاري . المكتبة العصرية . بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .

{ ٤٧ } فتح القدير للشوكاني . دار الفكر بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م .

{ ٤٨ } الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم . تحقيق عبد الرحمن عميرة وآخرون ، دار الجيل ، بيروت لبنان ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

{ ٤٩ } الكون والإعجاز العلمي للقرآن الكريم. د / منصور حسب النبي . دار الفكر العربي ، ط (٢) ١٩٩١م .

{ ٥٠ } القصص القرآني في سورة الكهف. الشيخ محمد متولي الشعراوي . طبعة أخبار اليوم . بدون تاريخ .

{ ٥١ } قطف الأزهار في كشف الأسرار للإمام السيوطي . تحقيق : د / أحمد الحمادي . وزارة الأوقاف القطرية / ط (١) ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

{ ٥٢ } الكتاب المقدس بدون تاريخ

{ ٥٣ } لسان العرب لابن منظور . دار الفكر العربي . بدون تاريخ .

{ ٥٤ } محاضرات في قواعد البحث العلمي . د / صفوت شاكر مهنا ١٩٩٠م بدون تاريخ .

{ ٥٥ } المحـــرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلســـي . تحقيق الرحالي الفاروق وعبد الله الأنصاري مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر . قطر ، ط (١) ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

{ ٥٦ } محاسن التأويل للقاسمي. تخريج محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر . بيروت ، ط (٢) ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

{ ٥٧ } معـــالم تجديد المنهج الفقهي أنموذج الشوكاني . حليمة بوكروشة . كتاب الأمة . قطر، ع (٩٠ ، ٩١) ١٤٢٣هـ /٢٠٠٣م.

{ ٥٨ } المعجم الوسيط.المجمع اللغوي، ط (٢) بدون دار طبع

{ ٥٩ } المغنـــي للقاضـــي عـــبد الجـــبار . تحقيق أحمد فؤاد الأهواني ١٩٦٢م .

{ ٦٠ } مفاتيح الغيب للإمام الرازي دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ

{ ٦١ } مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين للإمام الأشعري تحقيق محي الدين عبد الحميد . مطبعة النهضة ، ط (١) ١٩٩٥م .

{ ٦٢ } مقدمـــة التفسير لابن تيمية من مجموع الفتاوى . دار الحرمين . بدون تاريخ .

{ ٦٣ } مقدمـــة عمـــر عبيد حسنة لكتاب الاجتهاد التنزيلي . دكـــتور بشـــير مولـــود جحيش . سلسلة كتاب الأمة وزارة الأوقاف القطرية .

{ ٦٤ } مقدمـــة في أصول المنهج . د / عائشة عبد الرحمن . مؤسسة البحوث والدراسات العربية مصر ١٩٧١م .

{ ٦٥ } مـــن أجل أنطولوجيا إسلامية . محمد مزور . سلسلة دراسات فكرية ، ع (٩) وزارة الثقافة . دمشق ١٩٩٣م .

{ ٦٦ } مناهج البحث العلمي . د / عبد الرحمن بدوي . وكالة المطبوعات بالكويت ، ط (٣) ١٩٧٧م .

{ ٦٧ } منهج البحث في العلوم الإسلامية . د / محمد الدسوقي دار الأوزاعي ، ط (١) ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

{ ٦٨ } مـــنهج التلقـــي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة . أحمد الصويان . مطابع أضواء البيان ، ط (٢) ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

{ ٦٩ } الموافقات للإمام الشاطبي . تحقيق د/ عبد الله دراز . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . بدون تاريخ .

{ ٧٠ } ميزان الأصول في نتائج العقول (المختصر) للإمام الســـمرقندي . تحقيق محمد زكي عبد البر . وزارة الأوقاف القطرية ١٤١٨هـ / ١٩٧٨م .

{ ٧١ } النـــبأ العظـــيم . د / محمد عبد الله دراز . دار الثقافة الدوحة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

{ ٧٢ } نحـو مـنهج جديـد لدراسة علم أصول الفقه . نشر بحولـية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية . جامعة قطر ، العدد (١٢) ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

{ ٧٣ } نظـم الدرر في تناسب الآيات والسور للعلامة برهان الدين البقاعي . مكتبة ابن تيمية ، ط (١) ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

{ ٧٤ } الـنفس والـروح في الفكر الإنساني وموقف ابن القيم مـنه ، د / يوسف محمود . دار الحكمة . قطر، ط (١) ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

{ ٧٥ } النكـت والعيون للماوردي . مراجعة وتعليق : السيد عبد المقصود عبد الرحيم . دار الكتب العلمي. بيروت، لبنان ، ط (١) ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

{ ٧٦ } الوجيز في أصول الفقه . عبد الكريم زيدان . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٧م .

{ ٧٧ } لا إنكـار فـي مسائل الخلاف . د / عبد السلام مقبل مجيدي . كتاب الأمة ، س (٢٣) العدد (٩٤) ربيع الأول ١٤٢٤هـ .

الدوريـــات

{ ٧٨ } مجلة المسلم المعاصر العدد (٨٣) ذو الحجة١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

{ ٧٩ } مجلـــة المسلم المعاصر العدد (٧٧) السنة (٢٠) ربيع الأول ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

{ ٨٠ } مجلـــة المسلم المعاصر العدد (٧٥ ، ٧٦) س (٢٩) رجب ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

رات
.com

الفهارس

رات
.com

الفهرست

الموضـــــــوع	الصفحة
أولاً : **المقدمـــة**	٢
أهمية الموضوع وسبب اختياره	٥
منهج البحث	٧
ثانياً : **التمهيـــد**	٩
مدخل	١٠
تعريف المنهج	١٢
أولاً : المنهج في اللغة	١٢
تأملات في المعنى اللغوي	١٢
ثانياً : المنهج في الاصطلاح	١٣
إطلاقات مادة (نهج) في القرآن الكريم	١٥
تعريف الدليل	١٦
أولاً : الدليل في اللغة	١٦
ثانياً : الدليل في الاصطلاح	١٧
تعريف الاستدلال	١٨
تعريف المنهج الاستدلالي	١٩
تعريف منهج الدعوة الاستدلالي	٢٠

الموضـــــــوع	الصفحة
تأملات في هذا التعريف	٢١
الفصل الأول	٢٥
بيان طبيعة الأدلة	
المبحث الأول : ربانية الأدلة	٢٧
المبحث الثاني : وضوح الأدلة	٢٩
دلالات التأصيل	٣١
المبحث الثالث : اتفاق الأدلة مع الواقع	٣٣
تأصيل واقعية الأدلة	٣٥
دلالات التأصيل	٣٧
المبحث الرابع : انسجام الأدلة مع العقل	٣٩
تأصيل انسجام الأدلة مع العقل	٤٤
دلالات التأصيل	٤٦
المبحث الخامس : التأثير البالغ للأدلة	٥٠
تأصيل التأثير البالغ للأدلة ..	٥١
دلالات التأصيل	٥٤
المبحث السادس : دلالة القطع والإلزام	٥٨
تأصيل دلالات القطع والإلزام	٥٩

الموضـــــــوع	الصفحة
الفصل الثاني	
قواعد منهج الدعوة الاستدلالي للقرآن الكريم	٦٣
تمهيـــــد	٦٣
المبحث الأول: صدارة النص القرآني والحديث الشريف	٦٦
صدارة الكامل ضرورة عقلية	٦٦
تأصيل القاعدة	٧٠
دلالات التأصيل	٧٣
المبحث الثاني : التعريفـــات	٧٧
نماذج التعريفات	٧٩
أولاً : التعريف بالمعبود الحق	٧٩
أ – التعريف بالذات الإلهية	٨١
ب – التعريف بالصفات الإلهية	٨٥
أهمية التعريف بالذات والصفات للمدعو	٨٦
خطورة الجهل بالصفات الإلهية على المدعو	٨٨
ثانياً : التعريف بحقيقة التوكل	٩٠
أهمية التعريف بالتوكل للمدعو	٩٣

الموضـــــــوع	الصفحة
خطورة عدم التعريف بقضايا المدعو إليه ...	٩٤
المبحث الثالث : ترتيب النتائج على المقدمات ...	٩٦
تأصيل القاعــدة	٩٧
أولاً : ترتيب النتائج على المقدمات في جانــب التفكير النظري وإثبات العقائد	٩٧
دلالات التأصيل	٩٧
ثانياً : ترتيب النتائج على المقدمات في الجانب العملي والسلوكي	١٠٢
أ – ربط الأسباب بالمسببات	١٠٣
التأصيــل	١٠٣
دلالات التأصيل	١٠٥
ب – ربط الجزاء بالشرط	١٠٦
إطلاقات الشرط والجزاء في القرآن الكريم	١٠٩
تأملات في الآيات الكريمة	١١١
ترتيب النتائج على المقدمات قاعدة شرعية	١١٢
ترتيب النتائج على المقدمات مبدأ عقلي	١١٣
خرق الله للأسباب وصرفه للنتائج لا ينقض القاعدة	١١٤

الموضـــــــوع	الصفحة
أهمية قاعدة ترتيب النتائج على المقدمات	١١٩
المبحث الرابع : قاعدة ترتيب الأحكام على الأدلة	١٢٠
تأصيل القاعدة	١٢٣
دلالات التأصيل	١٢٤
القائل بغير علم خائض بلا دليل	١٢٩
أهمية قاعدة ترتيب الحكم على الدليل	١٣٤
المبحث الخامس : اعتماد الأدلة اليقينية لا الظنية	١٣٦
اليقين الذي نقصده	١٣٦
الظن الذي نعنيه	١٣٦
تأصيل القاعــدة	١٣٩
دلالات التأصيل	١٤٣
المبحث السادس : قاعدة المقابلة والتمييز	١٤٧
تأصيل القاعدة	١٥٠
دلالات التأصيل	١٥٤
حكمة التمييز بالنقيض	١٥٤
المبحث السابع : قاعدة الهدم والبناء	١٥٧

رات
com

الموضـــــــوع	الصفحة
أولاً : منهجية التطهير	١٥٨
التطهير قسمة عقلية كلية لا تقبل التجزئة	١٦٢
القسمة الكلية لا تنفي التدرج	١٦٣
ثانياً : منهجية التأسيس والبناء	١٦٤
ثالثاً : الوقـــاية	١٦٧
منهجية القرآن الكريم في الهدم والبناء	١٦٨
أولاً : بيان أوجه الفساد والعلل	١٦٨
ثانياً : بيان قيم البناء الراشد	١٦٩
تأصيل القاعـــدة	١٦٩
دلالات التأصيل	١٧٤
المبحث الثامن : قاعدة مراعاة مستويات الإدراك	١٧٧
مراعاة طبيعة عمل العقل	١٧٨
تأصيل القاعدة	١٨١
دلالات التأصيل	١٨٤
أولاً : تقرير اختلاف العقول	١٨٤
ثانياً : آيات تراعي الفوارق بين العقول	١٨٥

الموضـــــــوع	الصفحة
المبحث التاسع : قاعدة بيان أن فساد الحكم بفساد التصور	١٩١
تأصيل القاعدة	١٩٢
دلالات التأصيل	١٩٣
الفصل الثالث	
مقاصد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم	١٩٧
أولاً : إثبات قضايا المدعو إليه	١٩٨
ثانياً : ضبط الإدراك والوعي	٢٠٢
ثالثاً : ضبط منهج الجدل في الإثبات والنفي	٢١١
الخاتمـــــة	٢٢٧
المراجـــع	٢٣٠
الفهرس	٢٤١

رات
.com

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٦٢٩٩
مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا
أمام فرع جامعة الأزهر
أول طريق سبرباى كفر الشيخ

رات
.com